

السيد الولد الأستاذ
عبد الرحمن عزيم
مع نسي النجاشي

Ahmad Amin

أحمد أمين

d/p

بقلمه وقلم أصدقائه

بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته

٣٠ مايو ١٩٥٥

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٥



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

Near East

CT

2718

.A5

.A6

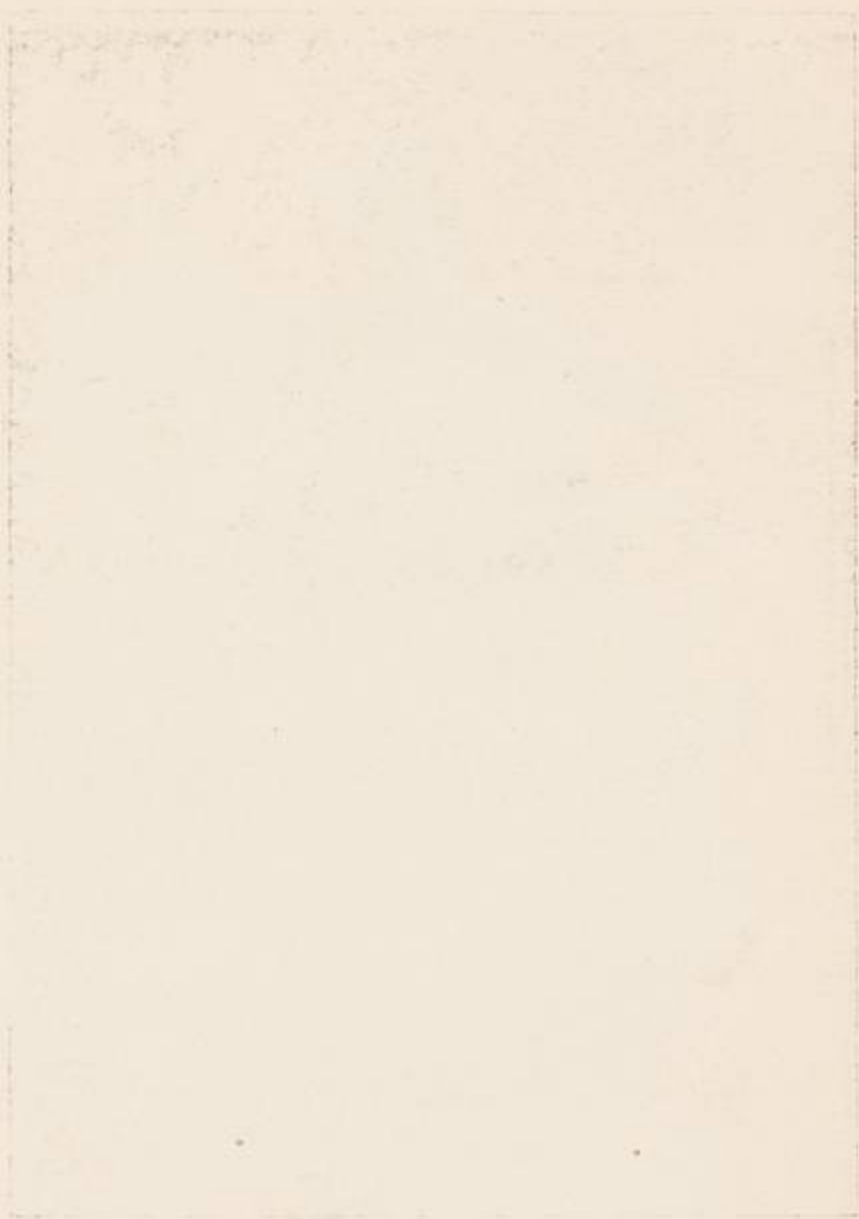
e-1

مكتبة لسان العرب

2001



فقيد العالم الإسلامي المغفور له الدكتور أحمد أمين
أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ — ٣٠ مايو سنة ١٩٥٤



Faint, illegible text or markings located below the rectangular frame, possibly a signature or a title.

الجملة المصرية

جامعة فؤاد الأول

بناء على اقتراح مجلس كلية اللاهوت بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤٧
قر مجلس الجامعة بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩٤٨ منح حضرة صاحب العزة
الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجهه الكريمة (الخطبة في اللاهوت)
من كلية اللاهوت تفسيراً لخطبات النبي وآله الكريمة .

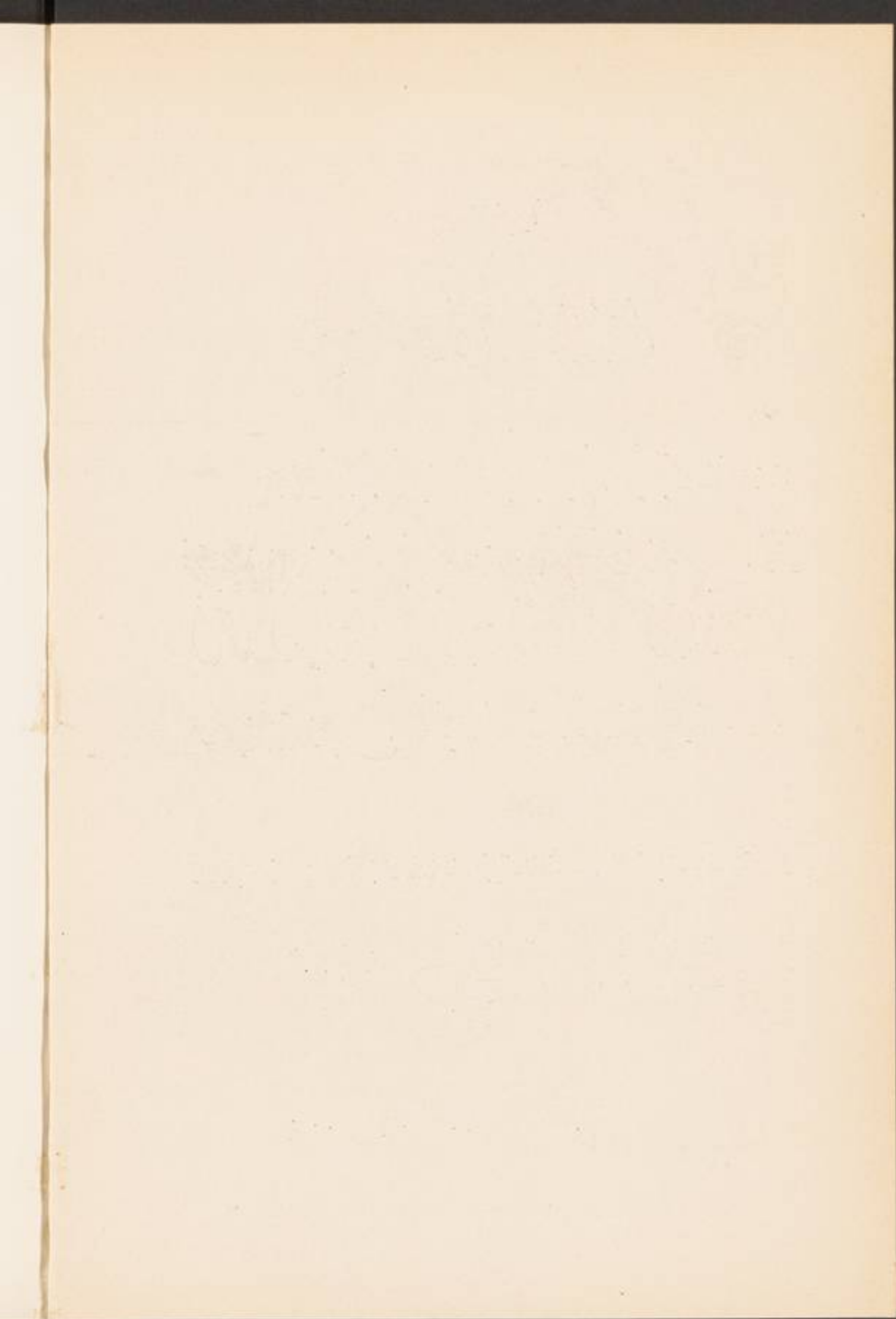
الطبعة الأولى في القاهرة، (الطبعة الثانية في القاهرة سنة ١٣٧٧ هـ) - الطبعة الثالثة في القاهرة سنة ١٩٤٨ ميلادية

الشيخ محمد بن عبد الوهاب
مؤلف الكتاب

مركز جامعة
(القاهرة)

جمعية اللاهوت
مصر

بمجلس النشر
للدراسات والبحوث جامعة فؤاد الأول
٤٤



فهرس (*)

الصفحة	
٥	صفحة حياتى ... : المرحوم الدكتور أحمد أمين
٧	صورة من حياتى ... : » » » »
١١	أحمد أمين ... المربى : الدكتور إبراهيم بيومى مدكور
١٥	أحمد أمين ... الأديب : الأستاذ أحمد حسن الزيات
١٩	أحمد أمين ... الصديق : الدكتور أحمد زكى
٢٧	أحمد أمين ... الفيلسوف : أحمد فؤاد الاهوانى
٣٧	أحمد أمين ... الوالد : الأستاذ جلال أحمد أمين
٤٣	أحمد أمين ... القاضى : » حسن جلال
٤٨	طيف الأمين (قصيدة) : الدكتور زكى المحاسنى
٥١	أحمد أمين ... الجامعى : » شوق ضيف ...
٥٧	أحمد أمين ... العالم : » طه حسين ...
٦٥	أحمد أمين ... المجاهد : » عبد الرزاق أحمد السنهورى ...
٧٧	ذكريات عن أحمد أمين : » عبد الوهاب عزام ...
٨٥	أحمد أمين ... ناشر الثقافة : الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف ...
٩٠	شخصية أحمد أمين : » محمد فريد أبو حديد ...
٩٩	صورة أحمد أمين : » محمود تيمور ...
١٠٥	أحمد أمين الكاتب : الأمير مصطفى الشهابى ...
١٠٨	لحات من أحمد أمين : السيدة وداد سكا كينى ...

(*) وضمت هذه المقالات فى الكتاب حسب الحروف الأبجدية لأسماء أصحابها .

Index

Index	1
Index	2
Index	3
Index	4
Index	5
Index	6
Index	7
Index	8
Index	9
Index	10
Index	11
Index	12
Index	13
Index	14
Index	15
Index	16
Index	17
Index	18
Index	19
Index	20
Index	21
Index	22
Index	23
Index	24
Index	25
Index	26
Index	27
Index	28
Index	29
Index	30
Index	31
Index	32
Index	33
Index	34
Index	35
Index	36
Index	37
Index	38
Index	39
Index	40
Index	41
Index	42
Index	43
Index	44
Index	45
Index	46
Index	47
Index	48
Index	49
Index	50
Index	51
Index	52
Index	53
Index	54
Index	55
Index	56
Index	57
Index	58
Index	59
Index	60
Index	61
Index	62
Index	63
Index	64
Index	65
Index	66
Index	67
Index	68
Index	69
Index	70
Index	71
Index	72
Index	73
Index	74
Index	75
Index	76
Index	77
Index	78
Index	79
Index	80
Index	81
Index	82
Index	83
Index	84
Index	85
Index	86
Index	87
Index	88
Index	89
Index	90
Index	91
Index	92
Index	93
Index	94
Index	95
Index	96
Index	97
Index	98
Index	99
Index	100

والدنا العزيز

وقفتَ حياتك على تربيتنا ، وتهذيب الجيل في أشخاصنا ،
ونشرتَ على الناس « إلى ولدي » نموذجاً في التنقيف
يحتذى مثاله .

عشتَ حياتك للفكر الخالص ، توجه أبناء الأمة نحو
الخير والعلم ، فكنتَ مفكر الشرق وحكيم الإسلام .
ولن نستطيع — نحن أبناءك — أن نفي بفضلك ،
فهذه أقلام أصدقائك — أعلام مصر والبلاد العربية — تنوب
عنا بالحديث عنك بعد وفاتك بعام ، ولهم منا على كلماتهم جزيل
الثناء ، وإنها لكلمات تعبر عن الود والصدق والوفاء .

أبناءؤك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله رب العالمين
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

صَفِيْة حَيَاتِي

[طلب بجمع اللغة العربية من أحمد أمين نبذة عن حياته تحفظ في ملفات المجمع ؛ فكتب بقلمه الكلمة الموجزة التي ننشرها هنا بتامها . وهذه الكلمة كتبها عام ١٩٥٠ وقد جرت العادة بأن يكتب العضو عن نفسه بصفة المجهول] .

ولد بالقاهرة في أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ وابتدأ دراسته بكتاتيب مختلفة بمدرسة والده عباس الأول الابتدائية (السماء الآن بنبا قادن) ثم الأزهر ثم مدرسة القضاء الشرعي فنال العالمية سنة ١٩١١ .

عين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعي في نفس السنة إلى سنة ١٩١٣ ، فعين قاضيا في محكمة أسيوط الشرعية ومنها انتدب لمحكمة الواحات الخارجة وبقى بها ثلاثة أشهر . ثم عاد مدرسا بمدرسة القضاء إلى سنة ١٩٢١ . فعين قاضيا في محكمة طنطا وانتدب لمحكمة قويسنا الجزئية ، ثم انتقل إلى مصر وانتدب لمحكمة طوخ الجزئية ، ثم انتدب لمحكمة الأزبكية وظل بها إلى سنة ١٩٢٦ ، حيث عين مدرسا في كلية الآداب بجامعة فؤاد ، فأستاذًا مساعدًا ، فأستاذًا ، فعميدا سنة ١٩٣٩ فأستاذًا إلى أن أحيل على المعاش في أول أكتوبر سنة ١٩٤٦ وفي أول يناير سنة ١٩٤٧ عين مديرا للإدارة الثقافية بالجامعة العربية إلى اليوم .

نال البكوية سنة ١٩٤٠ وفي نفس السنة عين عضوا بالمجمع اللغوي ، وفي سنة ١٩٤٨ نال الدكتوراه الفخرية وجائزة فؤاد الأول وفي أثناء أستاذيته بكلية الآداب اختير نحو عشر سنوات عضوا : لمجلس جامعة فؤاد الأول وفي سنة ١٩٤٥ مديرا لإدارة الثقافة بوزارة المعارف مع عمله في الكلية .

وفي سنة ١٩١٤ أسس لجنة التأليف والترجمة والنشر واختير رئيسا لها من يوم تأسيسها إلى يوم وفاته . وفي سنة ١٩٤٥ حينما كان مديرا للإدارة الثقافية بوزارة

المعارف فكر في إنشاء الجامعة الشعبية أسست، وكون لها مجلس إدارة كان رئيسه بعد ذلك التاريخ .

واختير سنة ١٩٣٩ عضواً للمجلس الأعلى لدار الكتب ، وفي سنة ١٩٤٥ عضواً للمجلس الأعلى للمعلمين ، وفي سنة ١٩٤٩ اختير عضواً بمجلس كلية دار العلوم وكذلك عين أستاذاً غير متفرغ في كلية الآداب وعضواً في مجلس كليتها .
وابتداً اتصالة بالصحافة سنة ١٩٣٤ في الرسالة والثقافة (وكان مديراً لها) ثم مجلات دار الهلال . وكذلك بدأ اتصاله بالإذاعة المصرية وإذاعات الشرق الأدنى ولندن العربية .

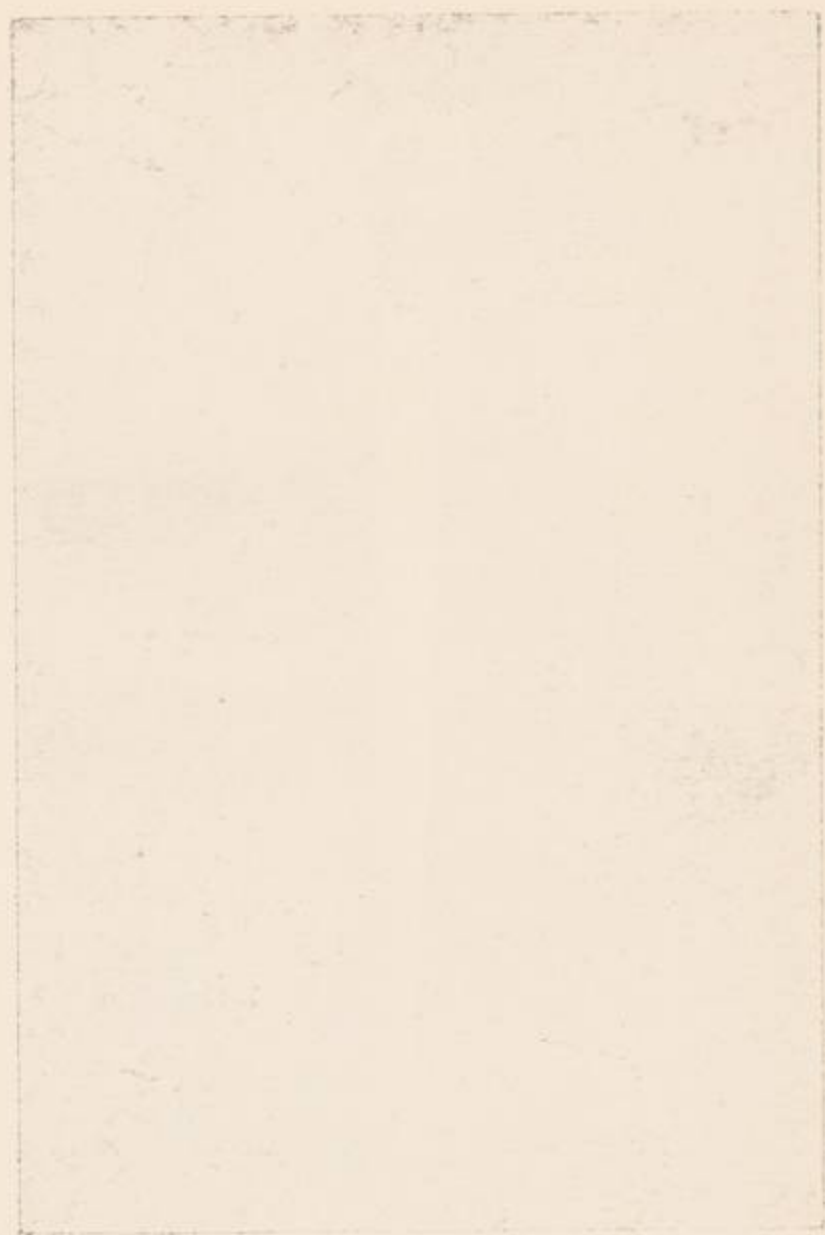
وفي سنة ١٩١٨ ترجم كتاب مبادئ الفلسفة . وفي سنة ١٩٢٢ ألف كتاب الأخلاق . ثم نجر الإسلام وضحى الإسلام (٣ أجزاء) وظهر الإسلام (٤ أجزاء) وله قصة الفلسفة اليونانية وقصة الفلسفة الحديثة مع الأستاذ زكي نجيب محمود ، واشترك في كتب مدرسية مثل المنتخب والمفصل ، ثم اشترك في نشر كتاب الإمتاع والمؤانسة والعقد الفريد ، ثم ألف كتاب قصة الأدب في العالم مع الدكتور زكي نجيب محمود في ٤ أجزاء ثم كتاب فيض الخاطر وهو مقالات في ٩ أجزاء ، ثم كتاب زعماء الإصلاح في العصر الحديث وحياتي وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية وكتاب الشرق والغرب .

وتوفي يوم الأحد ٢٧ رمضان سنة ١٣٧٣ الموافق ٣٠ مايو سنة ١٩٥٤ . وأطلق اسم أحمد أمين على أحد شوارع مصر الجديدة ، وخصصت جائزة باسمه تمنح كل عام لأول الفائزين على ليسانس الآداب من قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة . وهذه الجائزة مجموعة كاملة من كتبه .

ومكتبة أحمد أمين الآن في إحدى قاعات المؤتمر الإسلامي تحمل اسمه وهي مفتوحة الأبواب لكل من يرغب في الاطلاع عليها .



أحمد أمين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩١٦



۱۱۱۱ - ۱۱۱۱ - ۱۱۱۱ - ۱۱۱۱ - ۱۱۱۱

صُورَةٌ مِنْ حَيَاتِي

[كتب أحمد أمين حين أخذت له الصورة المنشورة مع هذا ، في ظهرها ،
هذه الصفحة التي تعد صورة قلبية يعبر فيها عن نفسه بأوضح من الصورة الشمسية]

هذه صورتي أخذت في يوم الجمعة ٧ إبريل سنة ١٩١٦ وسني تسع وعشرون سنة وستة أشهر عقب عقد زواجي بأربعة أيام . وقد اتخذت الكتب شعاراً فوضع المصور بجانبي الأيمن كتباً من عنده وكان بيدي اليسرى كتاب بالإنجليزية عنوانه « مبادئ الفلسفة » ، وكنت قد اشتغلت بتعريبه مع أحد إخواني وهو علي وشك الانتهاء . وقد لاحظت في الصورة البساطة غاية الجهد ، فلم أعمل شيئاً إلا اختيار اللبس وهو اللباس الذي اخترته يوم عقد الزواج ، وربما كان من أكبر الأسباب الباعثة على التصوير اعتقادي أني أنهيت شكلاً من أشكال الحياة ، وهو المعيشة الفردية ، وابتدأت نوعاً آخر من المعيشة ، وهو عيشة الزوجية ، له تأثير في النفس والجسم كبير ، وربما تبينت الفرق بين أثر المعيشتين إذا كان لي من الأجل متسع فصورت ما بعد الزواج ، ومن البواعث أيضاً علمي بأن السنة المتممة ثلاثين سنة تحتم حياة الصبا والفتوة ، وهي فاتحة حياة يغلب فيها عمل العقل والروية على أني — والأسف ملء الفؤاد — لم أنتفع بزمن الصبا كما أود ، فلم يجد المرح والنشاط ولا اللهو ولا الحب لقلبي منفذاً ، بل تشايخت قبل أوان الشيخوخة ، وهو ولا شك أثر التربية المنزلية فقد كانت تربية أساسها التخويف والإرهاب ، ولم أكن محوطاً بفرح وسرور في المنزل . وإني هذه السنة أحس بميل إلى الحركة وحب للنشاط على أثر درسي الإنجليزية على سيدة إنجليزية عجوز ، كانت تصلح من نفسي كما تصلح من لساني ، فكانت تخاطبني كثيراً بقولها « تذكر أنك شاب » وكانت تنتقد في الهدوء وسكينة الشيخ — وقد تغير كثير من آرائي وأخلاقى إلى خير ، ويرجع

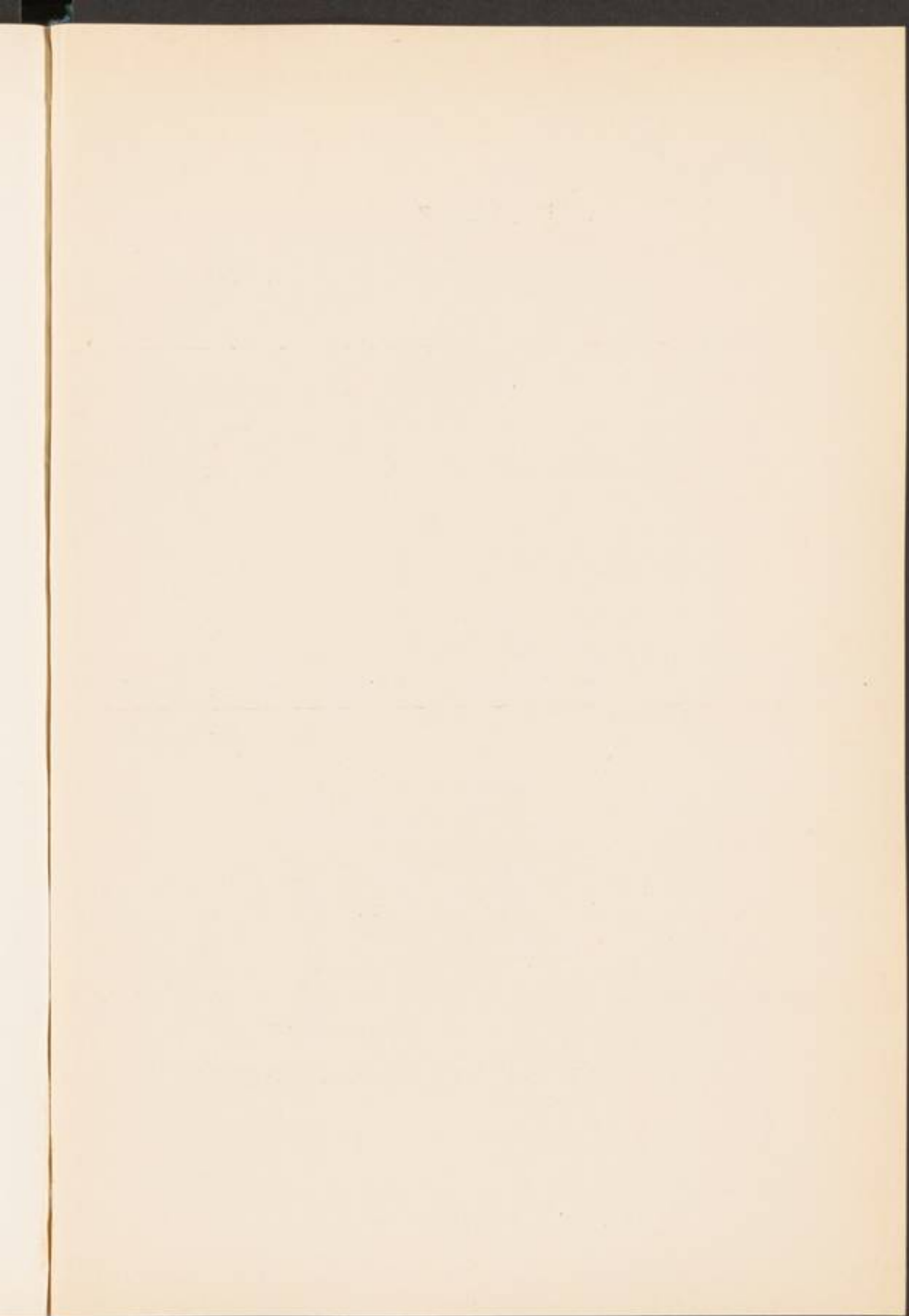
ذلك إلى عوامل ، أهمها : تعلم اللغة الإنجليزية وما كان يدعو إليه من مخالطة انجليزيتين راقيتين خلقاً إحداها مجوز والأخرى فتاة متزوجة . وثانيها : دروس الأخلاق مع مخالطة ناظر مدرسة القضاء عاطف بك بركات . وبما أحسن به أيضاً أنني الآن أكبر حرية في الفكر ، كثير النقد ، لا أخرج من انتقاد بعض المسائل الفقهية وما يتبعها . وأكثرت ميلى هذه السنة إلى القراءة في علمي الاجتماع والأخلاق مع ما أجد من الصعوبة لقرب عهدي بتعلم الإنجليزية ، فقد بدأت في تعلمها في يناير سنة ١٩١٤ ، في نحو سنتين ونصف أتعلمها ، وأنا الآن مدرس بمدرسة القضاء مرتبي ١٣٢٠ قرشاً ، ولم أمل التدريس ولا أمل التدريس ولا زلت أفضله على القضاء . وأنا أرجو من الله أن يعينني على القيام بعمل عظيم لأمتي من الجهة الخلقية والاجتماعية . كتب في ٢٠ يونيو سنة ١٩١٦ .

أحمد أمين

صورة من حياتي

هو عمر في اشدته في يوم الجمعة ١٤١٦ هـ وسني تسع وعشرون سنة وستة اشهر
عقب عقد زواجي بالربيع الثاني وقد اتفقت على شغل وضع الصور بجاني لولدي
مع عيني وقيامه بي ليرى كتابه بالانجليزية عنوانه «بادئ الفلسفة» كنت قد استقلت
بتدريسي مع احد اخواني وهو علي حسن بالانكليزية وقد لاحظت في كتابه ان فلسفة غايه
المجرب فلم اتفق شيئا بل وانما اللبس وهو انما هو الذي افهمه في عقد الزواج - وربما
كانه من اثار الاسباب التي افهمه على الصور اعقادي في ارضيت شعوريه شكلي الحياة وهو
البيئة الزاوية والاشياء نوعا اخره البيئة وهو من تزوجته له ثابته في النفس فلم
كيد وربما يفتت البرد به انما البيئة اذا كان له من الوحي تسع فصورته بعد كذا في
در الكرامت ايضا على انه لانه لانه ثابته في نفسه من نعم حياة الدنيا والفتن وهي ثابته
حياة يفتت في كل من يفتن والردية هو اني - والانساني الفؤاد - لم انتفع بزمه لساكن اورد
علم في المرح والفتن واللا اهل والواجب لعلمي بقضايا التي قبل اذ لم يتزوج وهو ولد
سنة انما التربية المنزلية فقد كانت تربية اساسا لتعريف والارهاق ولم انه يكون
يفرح وسرور في المنزل - وان هذه البيئة انما هي التي اوردت في كتابي لانه انما هو الذي
على سيرة الانجليزية يجوز كانت تصلي من نفسي في تصلي من لاني فكانت تتماثلت كثيرا بقول
«تذكر انك شاب» وكانت تنفذ في البرودا وكيفية الشيخ - وقد قبت كثره من اثار
واخذتني الى خيد ويرجع من انما هو الذي اظهرت تمام الفقه الانجليزية وما كانه يدور في
الانجليزية انفسه خلفا احد هما مجرب والآخرى ضارة من زوجه وانما في دروس الانجليزية مع لانه
انما من كفاية عاطفة في برمانا - وما انما هو ايضا اني لانه انه حرية في الفكر كثره لانه
لا يخرج من انما انما هو الذي انفسية وما تبطل - وانما هي في البيئة انما هو الذي انما هو الذي
الاجتماع والاضحية مع ما انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي
١٩١١ على نحو سيرة وانما انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي
انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي انما هو الذي

لأعلى من بيئة الفقه والجماعة - كتب 2٠٠٠ يوم ١٩١٦ هـ



مؤلفات أحمد أمين

- (١) فجر الإسلام (الناشر مكتبة النهضة)
(٢) نصحى الإسلام (٣ أجزاء) (« « «)
(٣) ظهر الإسلام (٤ أجزاء) (« « «)
(٤) يوم الإسلام (« دار المعارف)
(٥) حى بن يقظان (« « «)
(٦) قاموس العادات والتقاليد والتعاير المصرية (« مكتبة النهضة)
(٧) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (« « «)
(٨) الأخلاق (« لجنة التأليف)
(٩) حياتى (« مكتبة الآداب)
(١٠) فيض الخاطر (٩ أجزاء) (« مكتبة النهضة)

وهو مجموع مقالات أدبية واجتماعية وسياسية

- (١١) الشرق والغرب (الناشر مكتبة النهضة)
(١٢) النقد الأدبى (جزءان) (« لجنة التأليف)
(١٣) هارون الرشيد (« دار الهلال)
(١٤) الصعلكة والفتوة فى الإسلام (« دار المعارف)
(١٥) المهدي والمهدوية (« « «)
(١٦) إلى ولدى (« مكتبة الآداب)

كتب بالاشتراك :

- (١٧) قصة الفلسفة اليونانية (مع الدكتور زكي نجيب محمود)
(الناشر لجنة التأليف)
- (١٨) قصة الفلسفة الحديثة (مع الدكتور زكي نجيب محمود)
(الناشر لجنة التأليف)
- (١٩) قصة الأدب في العالم (٤ أجزاء) (مع الدكتور زكي نجيب محمود)
(الناشر مكتبة النهضة)

كتب اشترك في نشرها :

- (٢٠) الإمتاع والمؤانسة
- (٢١) ديوان الحماسة
- (٢٢) العقد الفريد
- (٢٣) الهوامل والشوامل
- (٢٤) خريدة القصر وجريدة العصر

كتب مترجمتها :

- (٢٥) مبادئ الفلسفة (الناشر لجنة التأليف)

كتب مدرستها :

- (٢٦) المنتخب من الأدب العربي
- (٢٧) المفصل في الأدب العربي
- (٢٨) المطالعة التوجيهية
- (٢٩) تاريخ الأدب العربي

أحمد أمين

حياته ، بقلم أصدقائه

تذکره

شاهنشاهی

أحمد أمين ... المرثية

بقلم الدكتور

إبراهيم بيومي مذكور

إن ثقافة أحمد أمين من تلك الثقافات الخصبية المتعددة الألوان ، فكان أديبا و لغويا ، فقيها ومحدثا ، مؤرخا ومحققا ، أخلاقيا واجتماعيا ، فيلسوفا ومتصوفا . وقد كتب في كل هذا ، وخلف آثارا قيمة . وهو دون نزاع من أوسع مفكرينا المعاصرين ثقافة ، وأفسحهم مجالا ، وأبعدهم آفاقا . ولم يكن غريبا أن يوكل إليه أمر الثقافة العامة إن في وزارة المعارف أو الجامعة العربية ، وبقى يتعهدا حتى النفس الأخير بفكره وعمله ، وصوته وتلمه . ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهو منها بمثابة الروح من الجسد ، آية كبرى من آيات إيمانه بالعلم والثقافة .

وهناك ناحية أخرى تعتبر — فيما نعتقد — نقطة البدء في حياته العقلية كلها ، ونعني بها التربية ، وعن طريقها امتد به البحث إلى شتى النواحي . ولم يكن بد من أن يكون أحمد أمين مرييا ، فقد أخذ عن أبيه الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب ، وهي إحدى وسائل التربية . ثم تتلمذ لعاطف بركات ، أحد أئمة المرين المصريين في نصف القرن الأخير . ولا نظن أن من بين أبناء القضاء الشرعي من أخذ عن عاطف أخذه ، أو تأثر به تأثره . تزاملا زمنيا ، وشغفا بالمعهد الذي التقيا فيه حبا ، وأرادا أن يجعل منه مدرسة مثالية ، لا تخرج علماء وباحثين فحسب ؛ بل رجالا لهم شخصيتهم واستقلالهم . وعلى هذا كان

لا بد أن يوكل أمرها إلى أمهر المربين وأكفهم ، وأن يختار لها أحسن الطلاب وأصحهم .

وقد بلغ به ولعه بالتربية أن نضحى في سبيلها بكرسى القضاء الذى أعد له وهَدَفَ إليه ، بالرغم من أنه كان سرموقا عظيم المنزلة يتمناه زملاؤه وأنداده . فلم يَمكث فيه إلا وقتا قصيرا ، ثم عاد مسرعا إلى مدرسة القضاء مشرعى يربى ويعلم ، ويؤدب ويهذب . وما إن ظهر التعليم الجامعى الأميرى حتى كان من بناته ومؤسسيه ، فقام على أمر كلية الآداب بالجيزة — فيمن قاموا — أستاذا وعميدا .

ولم تكن التربية في رأيه مجرد درس يلقى ومعلومات تشرح ، بل حرص الحرص كله على أن تكون تفتيحاً للذهن وإيقاظاً للانتباه والملاحظة ، وتعهداً للسلوك وتقويماً للأخلاق ، فكانت تربيته فكرية وروحية . ولم يمنعه زيه وبيئته من أن يساهم في التربية البدنية ويدعو إليها ما وسعه ، ولم تقم على الأرياء المصرية عامة وبعدها عن الانسجام والتناسق .

ولم تكن التربية عنده أيضا مقصورة على التلاميذ والطلاب ، بل أراد بها أن تكون عامة شاملة تصوب إلى الشعب بأسره ، وتتغذى المجتمع كله . وقصد إليها عن طريق الأندية والصحافة اليومية والأسبوعية ، بما كان يقدم من أحاديث ومحاضرات ، أو ينشر من خطرات ولحاحات ونقد وتعليق ، ولا زلت أذكر مقالة مقاله الذى نشر في « السفور » منذ خمس وثلاثين سنة تحت عنوان : « سياحتان في مكتبتين » . وهو في كل هذا يحلل التقاليد والعادات ، ويناقش الذوق والعرف ، ويقارن الشرق بالغرب ، ويوازن بين الحاضر والماضى ، ويرمى إلى وضع دعائم تربية اجتماعية استقلالية .

وإذا كان لم يكتب عن التربية في استقلال ، فإنه عرض لها في كثير من كتبه ورسائله . ويمكن أن يرد منهجه التربوي إلى أصول ثلاثة : القدرة العملية ، والاتصال المباشر ، والتصوير بثنون الحياة .

فأما القدرة العملية فكان يؤمن بها الإيمان كله ، ويقدر ما لها من أثر فعال ، ويتلمسها في الحاضر والماضي . وقد ضرب له منها عاطف بركات أمثلة كثيرة حية ، وحرص هو أيضاً على أن يقدم لتلاميذه أمثلة أخرى متعددة . وأشهد أنه كان قدوة صالحة ، يعنى بدقائق الأمور عنايته بعظائمها ، فيلحظ نبرات الصوت وطرق الأداء كما يتحرى عن الأفكار ويدقق فيها . وينفر من العورات والأمور الخاصة ويستذكر التعرض لها ، وأذكر أنه أغفل « باب الاستنجاء » وإن كان جزءاً من مقرر الشريعة ، وأبى أن يدرسه . لم يناقض قط عمله قوله ، ولم يتردد يوماً في أن يجاهر بما كان يؤمن به ، وأصدقائه وتلاميذه يعرفون مواقفه في الحركة الوطنية ، فكان سباقاً إلى الإضراب إن رأى ضرورته ، وداعياً إلى العمل والدرس إن اقتضت المصلحة ذلك .

ولم يقنع بقدرة الحاضر ، بل كان يبحث عن قدرات مختلفة في الماضي . ولذا أولع بتحليل كبار الشخصيات ، راجياً أن يبرز فيها ما يمكن أن يحتذى . وقد التزم هذا حتى في دراساته التاريخية الواسعة « كضحى الإسلام » ، فحتم كل فصل بالتأريخ لشخصية كبرى في موضوعه . وما ذاك إلا لأنه كان يرى أن الفكرة تبدو أوضح على لسان قائلها ، والعقيدة أقوى في شخص معتنقها . وإن في هذا لدرساً ما أحوجنا أن نفيد منه ، لاسيما وقد أضحت وسائل تربيتنا آلية تعنى بالسك أكثر مما تعنى بالكيف ، وتكاد تغفل أمر القدرة العملية وما لها من أثر .

وأما الاتصال المباشر فوسيلة الفهم والتفاهم ، وسبيل الارتباط النفسي والامتزاج الروحي . بيد أنه ليس في متناول الجميع ، وقد يعز على بعض الأشخاص . وأحمد

أمين كما نعلم كان متصرفا في قرارة نفسه ، يطمئن إلى الخلوة ، وبلذ له التأمل الهادئ وتفكير المتوحد ، وفي خلوته المنتجة أخرج لنا من مؤلفاته الكبرى .

ومع هذا كان يحرص على الاتصال بالناس بقدر ما يرى في ذلك من أداء رسالة وتحقيق معنى من معاني التربية . فكان بيته مفتوحا لتلاميذه وأصدقائه ، وكانت جلسة لجنة التأليف الأسبوعية مقدسة لديه ، فلم يتخلف عنها إلا في القليل النادر . ورواد هذه الجلسة يدركون ما كان يثار فيها من درس وبحث ، ويقدرّون ما كان لها من أثر في تبادل الأفكار والمشاعر . ولم كان أحمد أمين يتمنى — مع أستاذه عاطف — أن يكون له على من يتصل بهم نفوذ مشايخ الطرق في حكمة الفلاسفة . وعن طريق اتصاله المباشر استطاع أن يخلق مدرسة ويكون رجالا .

وكان يرى أخيرا أن التربية الحقّة هي تلك التي تبصر الشبان بشئون الحياة وتعدّم لها ، وهذا ولا شك من أحدث الآراء التربوية وأقواها . فلم يقف مع التلاميذ والطلاب عند شرح القوانين والنظريات العلمية ، بل أضاف إليها معالجة المشاكل الحاضرة ، سياسية كانت أو اجتماعية ، أدبية كانت أو أخلاقية . وطريقته في ذلك أخاذه نافذة تستولى على الأسماع وتملك الأفتدة ، وقد وصل به الأمر في أحد الأعوام الدراسية أن وقف حصة أسبوعية على التبصير بشئون الحياة ، وكنا نسميها حين ذاك حصة « المربة » ، واسمها وحده كان للتدليل على ما كانت تشتمل عليه من حلاوة وطلاوة ولا أغلو إن قلت إن هذا الدرس كان أجدى وأفضل في إعداد الشباب من دروس علمية كثيرة .

وواجب أن تبقى المدرسة دائما وثيقة الصلة بالمجتمع تردد أصداءه وتعدهله . والحكمة كل الحكمة في أن تتعهد هذه الصلة ونرعها ، وبذا نعيش في جيلنا وله . ورحم الله أحمد أمين الذي كان شعاره : اكتب وفكر بلغه العصر وروحه .

أحمد أمين ... الأديب

بقلم الأستاذ

أحمد حسن الزيات

رحم الله صديقي أحمد أمين ! لقد كان في أعقاب عمره دنيا من العلم والأدب ، في هيكل بال من العضل والعصب ! ومن الصعب على نفسى وقد صادفته أربعين سنة متتابعة أن أقول في الدعاء له : (رحم) ولا أقول : (حيا) ؛ وأن أستعمل في الإخبار عنه (كان) ولا أستعمل (هو) . وعسى أن يكون من بعض عنائنا عنه أننا مازلنا نعيش معه في كتبه ، وتتصل بروحه في أذهابنا . ولعلك لا تجد تلازماً بين شيئين أشد مما هو بين أحمد أمين وما يكتب . فقد كان إذا ألف كتاباً أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلاً ظل باقياً وراء كلماته وخلال سطوره ، يعرض عليك الصور ، ويقرر لك الآراء ، بطلعته الباسمة في غير افتتار ، ولهجته الحازمة في غير أمر ، وعقله القوي في غير صلف ، وطبعه الحي في غير ضعف ، وأسلوبه الهادي في غير فتور ، فلا تدرى أنقرأ أم تسمع ، وكتاب في يدك أم رجل معك .

نشأ أحمد أمين نشأة أزهرية . وأعنى بهذه النشأة ما يلازمها من نمط خاص في الحياة والتربية والدراسة والوجهة . ومن غريب هذه النشأة أنها تساعد على الهبوط ، كما تساعد على الصعود . فمخرجو الأزهر في عهده القديم كانوا إما قادة للشعب وإما حميلة عليه ؛ لأن حرية التعليم فيه كانت تهيب كل نفس لما خلقت له . فهذا تعدد ليكون قارئاً في ضريح أو إماماً في جامع ، وذلك تعدد ليكون مستشاراً في محكمة أو أستاذاً في جامعة . وأحمد أمين كان كمحمد عبده وسعد زغلول قد زوده الأزهر بخير ما فيه من صبر على الدرس ، واتكاء على النفس ، واستقصاء

لأطراف البحث ؛ ثم دفعه إلى الحياة دفعا ، فاستكمل ثقافته في مدرسة القضاء الشرعى ، ثم اشتغل بالتعليم ، ثم تولى الحكم بين الناس في المحاكم الشرعية ، ثم ثقف على نفسه اللغة الإنجليزية ، ثم تبوأ كرسيه في الجامعة المصرية وفي مجمع اللغة العربية ، ثم احتل بمؤلفاته مكان الزعامة العلمية .

لست بصدد الحديث عن نواحي العبقرية في حياة الفقيه وملكاته ومؤلفاته ؛ وإنما هي كلمة موجزة في طبيعة أدبه أكتبها في يوم ذكره ، تحية وفاء أقيمها على روحه ، وطاقه زهر أضعها على قبره .

كان أحمد أمين متضلعا من علوم الدين واللغة ، كأكثر النابغين من المتخرجين في الأزهر ؛ ولكنه كان من الأزهر بين القلال الذين أوتوا دقة النظر ، وحرية الفكر ، وسعة الأفق . فكان في الدين صاحب اجتهاد ، وكان في اللغة صاحب رأى .

كان يرى أن الدين دستور للعالم ، فلا بد أن يتطور مع العلم وأن يتقدم مع الحضارة . وكان يرى أن اللغة أداة للفهم ، فلا بد أن تطوع لآلسنة الناس وأن تجدد على طول الزمن . وكان رأيه في الأدب قائما على رأيه في الدين ورأيه في اللغة .

فالأدب تفكير مستمر يتأثر بالفكر العام ويؤثر فيه . والأدب تعبير متجدد يصور المجتمع الحاضر ويترجم عنه . فطبيعته المرونة لا الجمود ، وغايته الحق لا الجمال ، وعدته الانطلاق لا الفن . ذلك لأنه كان من الكتاب العقليين الذين يزاولون الكتابة عن علم لا عن سليقة ، ويتخذون الأدب وسيلة لا غاية .

كان همه من الكتابة أن يقرر ويقنع ، لأن يؤثر ويتمتع . ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله كان أخصب من خياله ، وأن علمه كان أكبر من فنه ، وأن حبه للحرية والصراحة كان يجلب إليه إرسال النفس على سجيته من غير تقييدها

بأسلوب معين ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشى خاص .
ومع ذلك كان لأسلوبه طابعه المميز وجاذبيته القوية . تقرأ فلا تروعك منه الصور
البيانية الأخاذة ، ولا الأصوات الموسيقية الخلابة ؛ وإنما تروعك منه المعاني المبتكرة
الطريفة ، والآراء الصريحة الجريئة ، والشخصية القوية المهيمنة . فأنت منه بإزاء
علم يبحث لينتج ، أو مصلح يصف ليعالج ، لا بإزاء مصور يلون ليعجب ،
أو موسيقار يلحن ليضطرب .

على أنه كان يتوخى الجمال أحياناً في الأسلوب بحكم الأثر الذي تركته فيه
درايته للقرآن والحديث ، وروايته للشعر والنثر ، ودراسته للبيان والنقد ، فيجمع بين
حسن الفكرة وجمال الصورة ، ويلائم بين وزانة المعنى ورضانة اللفظ . وربما
كان ذلك أظهر ما يكون في كتابه (حياتى) ؛ فإن في تصويره البيت والسقاء
والمحدث والكتاب والأزهر ، وفي وصفه لأبويه وأخويه وصديقيه عبد الحكيم
محمد وعلى فوزى ، وأستاذه عاطف بركات ومس بور ، لنماذج من البيان المطبوع
الذى يشرق بنور العقل ، وينبض بروح العاطفة ، ويزهو بألوان الفن .

* * *

ذلك أحمد أمين الأديب بالمعنى الأخص للأدب : أما أحمد أمين بمعنى
الأدب الأعم فقد كان أعظم شأنًا وأبلغ أثرًا وأرفع مكانة . وحسبه أنه حلل
الحياة العقلية للعرب والمسلمين في كتبه : فجر الإسلام وضحاها وظهره ، تحليلًا لم يتبعها
مثله لأحد من قبله . وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكمل ،
والعقل الذى لم يضل ، والبصيرة التى نفذت إلى الحق من حجب صفيقة ، واهتدت
إليه فى مسالك متشعبة .

لقد كان أحمد أمين ناجحاً فى حياته العلمية والعملية . وكان نجاحه فىهما
نجاحاً للجد وفوزاً للفضيلة ؛ لأنه لم يعتمد فى شهرته العلمية على الإعلانات

والتهويش ، ولا في مناصبه الحكومية على الاستخذاء والملق . وإنما كان يجري في عمله على الإخلاص ، وفي معاملاته على الحق ، وفي علاقاته على الشرف ، بالنصيب الأوفر مما يطيقه الإنسان الخاضع بحكم طبيعته لآثار الوراثة والبيئة والظروف . وما كانت حياته الحافلة إلا مثلاً للحياة العاملة في غير ضجيج ، الناصبة في غير ملل ، المثمرة في غير غرور ولا دعوى . فكانت أشبه شيء بالنبع السلسال العذب ، يسيل حلوا الخريز تحت شواجن الأدغال وفوق مطمن الأرض ، فيروى العطاش ويمرع السهول في غير هدير ولا صخب .

جعل الله روحه للخلد كما جعل ذكره للخلود ، وعضو الأدب والعرب من فقدته خير العوض .

أحمد أمين ... الصديق

بقلم الدكتور

أحمد زكي

ما أعجب مسالك الناس في هذه الحياة ، وما أعجب الأسباب التي يلتقي بها الناس في مسالك الحياة . إنه ليس يكفي أن تتقابل الوجوه حتى يتم التقاء . ولم مرة مس كتفك كنف رجل في الطريق ، أو حتى صاغت يدك يد رجل في الطريق وغير الطريق ، ثم انتفى أثر ذلك من اللوح المرقوم ، كالقلم تخط به في الماء ، لا يكاد أن يكون له أثر في الماء حتى ينتفى . وقد تخط به في الرمل ، فيبقى الأثر بمقدار ما تهدأ الريح ، ثم تسفوه فكأنه ما كان .

لم يكن لقائى بأحمد أمين ، أول الأمر ، لقاء عابراً ثم توثق ، كان لقاء تدعمه وشيجة من وشائج الأرحام .

وأنظر اليوم في التاريخ البعيد ، إلى الوراء ، عشرة من السنين فعشرة ، فائتئين أخرى من العشرات أو ثلاث ، استشف في ضباب تلك السنين الماضية كيف لقيت أحمد أمين أول مرة ، فأذكر أنى صبي ، وأذكر أن والدى جاءنى يقول لى ستكون فى صحبتي اليوم فى زيارة عمك ، فى القلعة ، فى منزل الشيخ إبراهيم ، وأحمد أمين — لو كمل اسمه — لكان أحمد أمين إبراهيم . وذهبت معه ، ورأيت القلعة ، وأحسب أن تلك كانت أول رؤية لها . ومن القلعة دلفنا إلى مسجد الشيخ الرماح . ومن المسجد دلفنا إلى حارة من حارات مصر التي كانت فى تلك الأيام مأوى الناس حين يسكنون ويريحون . والحارة طويلة

خليلة ، ساكنة هادئة ، يغلب عليها الظلام أكثر ما يغلب النور لضيق في مسلكها ، وطول في مساكنها . ثم تقف ، أنا ووالدي ، عند نهاية الحارة المسدودة ، أو ما كاد أن يكون نهايتها ، عند بيت ارتش الماء أمامه . ودخل والدي ودخلت وراءه ، فوجدنا الشيخ في حجرة إلى اليمين وقد جلس يقرأ ، ووجدنا أولاده ، قد تفرقوا في حجرات الدار السفلى ، كذلك يقرأون . والقراءة منها المسموع ، ومنها الخفيض الذي لا يسمع . وهي لاشك كانت قرآنا ، أو كانت فيما اتصل بالقرآن من حديث أوقفه ، فالكتب كانت صفراء . وكذلك الجو وسكونه في الدار ، مع شدة الظل فيها ، كان يوحي بأن الدراسة كانت من الجدل بحيث أنها لم تسمح بدخول الكثير من النور . وخيل إلى أن هذا الشيخ الجالس ، في تلك الحجرة اليمينية ، لا يفتأ يرقب ما يجري في ردهة الدار وحجراتها من دراسة ، وأن طاعة أبنائه له لم تكن طاعة بنوة نخسب ، بل كانت فوق ذلك ، وأكثر من ذلك ، طاعة تلمذة لمعلم ، على الرغم من هدوئه وتوقره ، صارم . وانهت الزيارة وما أحسب أني في هذه المرة عرفت من أحمد أمين شيئا ، إلا أنه أحد إخوة ثلاثة ، يكبروني ، أنا الصبي ، بنحو عشرة من السنوات فما فوقها ، وأنهم طلبة أزهر يون ، لأب أزهرى عالم تقى نابه صارم .

* * *

وأغوص في التاريخ مرّة أخرى ، فأجدني ، بعد تلك الزورة الأولى في حيّ القلعة ، بمنزلنا ، في طرف من أطراف بولاق ، يطل على النيل . كان الوقت عشاء . وكنت في حجرة ، أنا ووالدي ، نقرأ جميعا . هو يقرأ أدبا ، وأنا أقرأ علما ، وكانت مسائل في الهندسة ، فأحسبني كنت عند ذلك في السنة الثالثة الثانوية ، بالمدرسة التوفيقية . ودق الباب ، ودخل علينا الشيخ أحمد أمين . جاء يزور والدي ، وكانت توثقت بينهما علاقة فكري . كان والدي ثائر الفكر ، شيخا . وكان أحمد أمين ثائر الفكر ، شابا . والتقى المزاجان . وأطلع أحمد أمين في تلك الزيارة على

ما كنت أصنع ، ودخل فيما كان بين يدي من مسائل في الهندسة عرفت منها أني
أمام شيخ غير من عرفت من أطرزة المشايخ . وحسبت أن أحمد أمين كان في حديثه
في الهندسة ، في تلك الزورة ، به بعض تيه ، بأنه ، وهو الشيخ المعتم ، يستطيع
أن يجادل ولو صبيا مطربشا في علم من العلوم الحديثه التي ظل الأزهر يصفها إلى
عهد حديث بأنها علوم « مما لا تسعه أفهامنا » . والذي تعلمه أحمد أمين من
ذلك لم يكن قد تعلمه في الأزهر ، ولكن في مدرسة القضاء الشرعي ، وعاطف
بركات ناظرها .

وذهب الموت بوالدي ، وبقى أثر من والدي في أحمد أمين ، حتى جاء الموت
يطرق باب أحمد أمين . كانت ثورة والدي الفكرية قد تحولت في شيوخته
إلى عزوف عن الدنيا ، وقلة إيمان بمن خلق الله من الناس . وابتغى هذا العزوف
بأن قطع والدي علاقته في آخر أيامه بالناس ، وبأكثرهم قربا إليه . وأنس في
وحدته بالله . وتقد أحمد أمين ما صنع والدي ، حتى بلغ من الشيخوخة ما بلغه
والدي أو قارب . ذكر لي في سنته الأخيرة والدي ، قال : كنت أراه على غير حق
في قطيعة الناس ، واليوم لا أرى شيئا عندي أكره من الناس ، ولا أصوب في
هذه الدنيا من قطيعة ، ولا أروح ولا أصفى لبال المتأمل الزاهد . وأنا اليوم
سائر في سبيل سلكه والدك من قبلي .

* * *

وأغوص في التاريخ مرّة ثالثة ، هي غوصة أقل من الفوصتين السابقتين عمقا ،
فأذكر أني أسير والشيخ أحمد أمين ، على كوبري بولاق ، تنسم ما كان يهب
من الشمال من ريح في الصيف باردة . وكان معنا نفرهم الأعضاء الأولون الذين منهم
تكونت لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وعلى رأسهم أحمد أمين . وكانت الحرب
العالمية الأولى قائمة . وكان أعضاء اللجنة مطربشين ، لإمامة واحدة ، علوا بها

فوق الطرايش ، للذى كان تحتها من رأس ناضح ، ومن قلب وقور حساس . وتأثر صاحب العمامة فيما تلا من السنين بأصحاب الطرايش ، وتأثر أصحاب الطرايش بصاحب العمامة ، واتصل هذا الأثر أربعين عاما كاملة . فقد ظل أحمد أمين رئيسا للجنة التأليف ، ينتخب بالإجماع عاما بعد عام ، أربعة عقود من السنين ، انتهت بوفاته .

وتحولت بذلك الصداقة التى بيننا ، من صداقة أسرة ، إلى صداقة أسرة
ممزوجة بصداقة عمل ، وصداقة أمل ، وصداقة جهاد .

* * *

وتنتهى الحرب العالمية الأولى ، وتقوم الثورة المصرية . فنرتب فيما بيننا ، وبين إخوان آخرين لنا ، المظاهرات ، ونرتب الهتافات . وأرانى ، أنا وهو ، على رأس فئة للمعلمين فى مظاهرة ، تحمل علما ضخما ثقيلًا . أحمله فأتعب . فيحمله عنى ، وهو الشيخ ، حتى يتعب . وتركنا الهتاف لغيرنا . فلم نكن بحكم المزاج هتافين . وبقى هذا المزاج فيه إلى أن مات ، وأحسبه باق عندى إلى مثل هذا المآل . وما هو قلة إيمان بالحق ، فى تلك المظاهرات الأولى كنا نسير والرصاص يجرى من فوق رؤوسنا . ولكن استحياء من أن يقال فلان وطنى ، ويكون ثمن ذلك صرخة ، هى من هواء ، يصرخ بها صارخ فى تظاهر عام قد يلتبس بالتظاهر الفردى الشخصى . وكم آذى هذا المزاج أحمد أمين فى حياته ، وكم آذانى . ومن هذا المزاج خشية الملق ، جعلته يحجم وأحجم عن كثير من الواجبات ، فى الكثير من المناسبات . وما هو إجماع عن حق ، أو عن مناصرة فى حق ، ولكن مقالة فى الاحتفاظ بكرامة الإنسان .

إن الذى ألتف بين أحمد أمين و بينى مشاركة فى الطبع ، هذا أحد أمثالها ، وكذلك وحدة فى الفكر . كان يقول وأقول ، فكأنما هو وتر فى جوقة يناغم وترا .

ويشكو وأشكو ، فيرتاح كلانا من بث الشكوى . أو يقول ما يسر وأقول ،
فنغتبط جميعا بهذا السرور . ومم قال فكرة تبلورت عندي بعد قيام فكانت مقالة ،
ومم قلت فكرة تبلورت عنده فكانت مقالة . وملتقى من بعد ذلك فنتضاحك
على هذا الوحي والإيحاء كيف جرى بيننا .

وكان يحب في شبابه التوت الإفرنكي ، المعروف بالفرولة أو الشليك ،
وكنتم أحبّه . وإذا به يوما يشتري في الجزيرة ، فيما يلي كوبري قصر النيل ،
بمبلغ كبير ، مقداراً من الشليك عظيماً ؛ لا يكفي واحداً ، بل يكفي عشرين . قال :
إذا اشتاقت نفسك إلى شيء ، وكرهتَ منها أن تشتاق كل هذا الاشتياق ، فلا
تمنعها عنه تأديباً لها ، ولكن أغرقها به إغراقاً . اجعلها تأكل حتى تعاف ، فقد
يكون في ذلك إبراء لها مما تشتهي ، من الحلال .

* * *

واعترفت الرحيل عن مصر إلى إنجلترا . واتصلت بيننا عبر البحر المكاتبه .
كنت أكتب ويكتب . ومن كتبني إليه ، وفيها من نار الشوق ما فيها ، ومن
بث ألم الغربة ما فيها ، ما كان يقرأه على طلبته في مدرسة القضاء الشرعي . حدثني
بذلك ، عام أول ، تلميذه السيد الفاضل الشيخ محمد أبو زهرة ، أستاذ الشريعة
بجامعة القاهرة ، كما حدثني به آخرون .

وكتب لي مرة يقول إنه بعد أن افتقد صحبتي ، من الله عليه بشبيه لي ،
يأنس إليه كما كان يأنس إلىّ ، شاب عاد من فرنسا ، أو لعله كان ذاهباً إليها ،
اسمه عبد الرزاق السنهوري . واشتقت إلى رؤية هذا الشبيه البديل ، إلى أن التقيت
به ، بعد غيبة سنوات عشر ، على مائدة مجلس إدارة الجامعة المصرية . التقينا
أستاذين ، السنهوري في الحقوق ، وزكي في العلوم .

ودخل الشيخ أحمد أمين الجامعة ، ورأى أن يغير العمامة بالطر بوش ، بحجارة

للزمان ، وانسجاما مع بيئة الجامعة . وكتب يستنصحنى ، عبر البحار . ولست أذكر اليوم بأى شيء نصحته . ولكن يخيل إلى الآن أنى قلت له إنه حمل العمامة بضعا وثلاثين عاما ، وأنها خدمته بضعا وثلاثين عاما ، وإن الطلاق بعد هذه العشرة الطويلة ، لأن الرأس الذى يحملها قد أترى ، شيء فى دستور الحب لا يستحب . ولعلى قلت له ، إنه إذا احتاج إلى الطربوش ، فما الطربوش بحاجة إليه . وإنما صاحب الحاجة إليه العمامة . إن سوق الطرايش كانت رائعة ، والعمامة كانت فى حاجة إلى رأس كراسه يدعمها ، كما دعمها من قبل له فى مصر وغير مصر أشباه . ثم تركت له أن يختار . وعدت فرأيته ، ورأيت الإخوان ، قد تطربشوا . فخرنت للعمامة أن يطرحها أهلها هكذا اطراحا . وكان بمن اطرحها صديق أحمد حسن الزيات . وبينى وبينه من صلوات المحبة وشائج تمتد جذورها فى الماضى البعيدة .

وامتدت الصداقة بينى وبين أحمد أمين نحواً من أربعين عاماً ، لا أذكر أنه وقع فيها بيننا جفوة ، إلا جفوة واحدة دامت يومين . وكانت جفوة فسكر تتعلق بزميل ، أخذ يهدم من خير حساب . وأكره ما أكره الهدم بغير بناء . لا سيما الهدم فى أصول عليها الحياة قائمة . وناصر أحمد أمين الزميل باسم حرية الفكر ، ونشر له . وقرأ الناس ما نشر . وخفت أن أقرأه . وإلى اليوم لا أدرى ما كتب . فهكذا بلغ الحب بينى وبين أحمد أمين .

وفى اشتداد علته الأخيرة زرتة . وكانت الجامعة أيضاً فى علة . وكان الوقت صباحاً . وصعدت إلى حجرتة ، وكان وحده ، فراغنى منظره . كان منظر من يئس من الحياة فترك تقليم الحياة وتهذيبها . قال : كيف تزورنى فى هذه الساعة وروما تحترق . قلت : إن البلد الذى يحرقه أهله ، حتى لا يبقى فيها صغير ولا كبير إلا يستوقد لنارها ، بلد حل به غضب الله . وتذاكرنا الخيبة ، وتذاكرنا أمور



أحمد أمين في شبابه



Handwritten text, possibly a signature or name, located below the rectangular outline.

الأجيال . وقتت عنه إلى روما ، أشق لنفسي طريقاً في لهبها .

* * *

وجاء آخر لقاء .

كان هذا في أمسية ، بدار لجنة التأليف . وانصرف الناس وبقيت معه وحده . وإذا بنفسه تغميم نجاة كما تغميم السماء . وكنت أعرف ذلك من وجهه وقبل أن يتكلم . وأخذ يتكلم ، ويذكر الحياة وقلة جدواها له بعد الذي كان . كان يشكو أن قصر النظر بلغ به أنه يسلم على الرجل فلا يدري من هو . وعزّت عليه نفسه ، وغالبه البكاء فأخذ ينشج به . وأمسكت بيده أشد عليها . قلت : تماسك يا رجل . وكانت نصيحة قائلاً كان أحق بها . وتتاخر سيارته فأحمله في سيارتي . وأسرع لأقوده في الظلام عند باب بيته وهو يهبط من السيارة . فإذا به ينادى الخادم حتى يرفع عنى كلفة إسناده ناحية الباب .

و بعد ٣٦ ساعة يدق التليفون في مكنتي .

إن أحمد أمين قد مات تَوّاً .

وأسرع إلى بيته ، فلا أجد به أحداً . لقد تفرق أولاده في تجهيز الجهاز فلم يتخلف منهم في البيت أحد . وأصفق وليس من يرد . والبيت هادئ ساكن . ففر لولا الحديقة . وأحضرت لنفسي كرسيّاً كان في الحديقة وجلست . وأنظر إلى تلك الغرفة العليا ، وأنا أعلم أن أحمد أمين مسجّى فيها ، ولكن لا سبيل إليه . إن السبيل كان أيسر إليه وهو حيّ .

* * *

شيء لا بد أن أقوله قبل أن أكف . ظن أحمد أمين أن الحياة عافته ، وأنها هجرته . والحق أنه هو الذي عافها ، وهو الذي احتقرها في أيامه الأخيرة واحتقر ناسها . حضرنا حفلاً في سفارة العراق ، عصر يوم . وازدحمت السفارة بضيوفاها .

وهناك التقيت بأحمد أمين . ظهر في هذا الحفل بما لم يجر الناس على أن يظهروا عليه في الحفلات : الذقن لم تحلق من أيام . والقميص مفتوح صدره ، وليس بياقته رباط . والهندام كله يكاد يهزأ بالحاضرين .

ودلف إلىّ في الحفل صديقي إميل زيدان . قال لي : ماذا جرى لأحمد أمين . قلت : ذهب عنه احترام الدنيا . فقال إميل قولة من أحلى ما يقال في هذا الموقف ، ومن أصدق ما يقال . قال : بل إن أحمد أمين ارتفع عن المجتمع ، فلم يأبه فيه بما يصنع .

رحم الله أحمد أمين ، بتقدار ما عاش ، وبمقدار ما جهد في عيشه لنفسه ، ولولده ، وعلى الأكثر للناس . ورحمه رحمة واسعة .

أحمد أمين... الفيلسوف

بقلم الدكتور

أصغر فؤاد الالهوامي

ترك أحمد أمين مؤلفات كثيرة ، وملاً الدنيا بمقالاته وإذاعاته وأحاديثه ، فكان مفكراً عميق الأثر في هذه الفترة من تاريخ مصر والشرق . وإذا شئنا أن نلتمس فلسفة أحمد أمين فعلينا أن نرجع إلى جميع مؤلفاته . ولكنني سأقصر البحث على أعلى كتبه شأنًا ، وأستمد منه فلسفته .

لم يظفر كتاب من الذبوع والانتشار والتأثير بمثل ما ظفرت به مجموعة الكتب التي أصدرها أحمد أمين حين أصدر « فجر الإسلام » عام ١٩٢٩ ، وتبعها بضحي الإسلام في ثلاثة أجزاء ، ثم الظهر في أربعة أجزاء . فقد طبعت أجزاءه الأولى ست مرات ، كل طبعة منها بضعة آلاف . وأصبح الفجر والضحي والظهر مرجع كل طالب ، ومرشد كل باحث ، والمنازة التي يهتدى بها الناظر في التاريخ الإسلامي وحضارته .

فقد درج العرب على تاريخ حوادثهم في حويلات كما نرى في الطبرى وابن الأثير وغيرها ، فيذكرون الأحداث من شتى نواحيها ، يختلط فيها التاريخ المحض السياسى بالأدب والعلم والدين ، ولم يعرف أحد من المتقدمين طريقة كتابة التاريخ الحديثة ، اللهم إلا ابن خلدون الذى صور في مقدمته كيف ينبغى أن يكتب التاريخ ، حتى إذا شرع في تدوين تاريخه سار على نهج القدماء .

أما تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة فلم يعرفوا عنه شيئاً . فإذا أراد باحث اليوم أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية في مختلف عصورها ، مع بيان العناصر

المكونة لها ، والظروف التي أدت إلى ظهورها ، كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، فلن نجد شيئاً من ذلك واضحاً في الكتب القديمة . ذلك أن القدماء كانوا يتصورون أن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ، فترى الجاحظ يكتب في البيان والتبيين تفسير آية إلى جانب حكاية للشعراء ، وينتقل منها إلى رأى لصاحب المنطق ، وهكذا . وكذلك الحال في الأمالي أو نهاية الأرب ، وغير ذلك من كتب الأدب ، أو التاريخ ، فكلمها استطراد لا نظام فيها .

لذلك كانت مهمة مؤرخ الحضارة الإسلامية مهمة شاقة عسيرة ، تحتاج إلى إحاطة شاملة بكثير من العلوم ، من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب واجتماع واقتصاد وفلسفة وعلم كلام وتصوف ، وعلى الجملة كافة العلوم المكونة للحضارة .

ويحتاج المؤرخ بعد هذه الإحاطة الشاملة إلى تنظيم جديد لهذه المادة الواسعة التي جمعها . وهذا التنظيم عقليٌّ ، وتتجلى فيه أصالة المفكر ورجاحة عقله ، لأن الأفكار ليست كالأمر المادية المحسوسة التي تشاهد بالحواس ، بل هي أعلى من الظواهر الحسية ولا تدرك إلا بالعقل . وقد لمس أحمد أمين هذه الصعوبة في كتابة تاريخ الفكر الإسلامى ، فقال في مقدمة الجزء الأول من « نضحي الإسلام » : « لعل أصعب ما يواجهه الباحث في تاريخ أمة هو تاريخ عقلها في نشوئها وارتقائها ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب . ذلك أن مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جليٌّ . أما الفكرة فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل في إيجادها ، وما العناصر التي غذتها ، وما الطوارئ التي طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، أعياك ذلك ، وبلغ منك في استخراجها الجهد ... » .

وفي هذه العبارة القصيرة التي نقلناها يتضح الدستور العقلي الذي رسمه

أحمد أمين لنفسه ليسير على نهجه في تفصيل الحياة العقلية عند المسلمين ، منذ نشأتها حتى العصور الحديثة .

فهو يحلل بعقله العقلية الإسلامية في تطورها .

والنظر بالعقل في العقل هو الفلسفة على التحقيق . فقد قيل في تعريف الفلسفة أمور كثيرة ، أشهرها ما ذكره المعلم الأول من أنها العلم بالعلل والمبادئ الأولى . وقد انحصرت الفلسفة اليوم بعد انفصال العلوم المختلفة عنها في تحليل العقل البشرى . ولم يفعل أحمد أمين أكثر من ذلك ، حاول أن يلتمس العلل البعيدة التي غذت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها في شتى الصور على مر العصور . واقتضى منه هذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام ، وإلى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية ، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها في بوتقة الحضارة الإسلامية . وفعل أكثر من ذلك أنه نظر إلى العقل الإسلامي فشرّحه ، في حرية شديدة ، وانتقل من التحليل إلى الأفكار التركيبية التي انتهت إليها العقلية حتى تحققت في الحياة ، واستوت في مظاهر السلوك ، وبرزت في الأقوال المسطرة ، والكتب المدونة ، والعلوم المنتشرة .

ومن هذا الوجه كانت لأحمد أمين فلسفةٌ أبرزَها في أعلى كتبه شأنًا ، وهو فجر الإسلام ونجاحه وظهره .

وتقوم هذه الفلسفة على أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية أثرت تأثيراً عظيماً في حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع أنظمتها ، ذلك هو الإسلام الذي انتشر من أقصى الشرق في الهند إلى أقصى الغرب في الأندلس . فإذا شئنا أن نعرف حالنا اليوم ، وأن نتبين ما لنا من فلسفة ، أو ما ينبغي لنا أن تكون ، فعلينا أن نرجع إلى تلك الأصول الإسلامية البعيدة منذ ظهور الإسلام ، بل قبل ظهور

الإسلام ، لتبين الأسس التي قامت عليها ، والعوامل التي أدت إلى قيام الحضارات المختلفة . فالحاضر وليد الماضي ، والأمم تتبع في تطورها سنة النشوء والارتقاء .

وقد ألزم أحمد أمين في بحثه أبواباً ثلاثة كان يفصلها عندما تناول الحضارة الإسلامية وما وراءها من عقلية موجهة لها بالكتابة ، وهذه الأبواب الثلاثة هي الناحية الاجتماعية ، ثم العلمية ، ثم الدينية .

وقد امتزجت هذه الأبواب الثلاثة في الكتاب الأول فجر الإسلام ، لأن الحضارة لم تكن قد اتسعت ذلك الاتساع الذي بلغته فيما بعد . ولكنه حين كتب ضحى الإسلام قسمه ثلاثة أقسام أو ثلاثة أجزاء ، وهي المجموعة التي تفصل المائة الأولى من العصر العباسي ، من عام ١٣٢ إلى ٢٣٢ أى إلى خلافة الواثق لأنه كما يقول : « عصر يمتاز بلون علمي خاص ، كما أن له لوناً في السياسة والأدب خاصاً ، امتاز بغلبة العنصر الفارسي ، وبحرية الفكر إلى حد ما ، وبدولة المعتزلة وسلطانهم . وبتلوين الأدب من شعر ونثر لونا احتذى على كبر الدهور واختلاف العصور » .

وكذلك ظهر الإسلام ، فالجزء الأول منه يبحث في الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجري ، والجزء الثاني يبحث في تاريخ العلوم والآداب والفنون في القرن الرابع ، والجزء الثالث الذي طبع بعد وفاته يبحث في الحركات الدينية المختلفة . أما الجزء الخاص بالأندلس من ظهر الإسلام ، فهو جزء على حدة لامتياز الأندلس بحضارة من لون خاص ، وهو يبحث في الحياة العقلية منذ فتح العرب للأندلس حتى خروجهم منه .

وقد تقول أين تعلم أحمد أمين الفلسفة ، وعلى أي الأشخاص أخذها وعرفها ؟ الحق أنه علم نفسه بنفسه ، إلى جانب نزوع فطرته إلى محبة الحق وإيثار الحكمة .

ولست الفلسفة شيئاً آخر إلا معرفة الحقيقة لذاتها ، وطلب الحكمة ، مهما تعترض المرء من معوقات تنشأ معظمها عن السير مع الهوى ، والتمسك بالتقاليد . فمذ شروع أحمد أمين في التأليف نرى أنه يترجم كتاب « مبادئ الفلسفة » وهو كتاب صغير الحجم جيد في بابه يلخص معاني الفلسفة حديثاً مع ذكر فروعها المختلفة على وجه الإيجاز . وكان ذلك الكتاب من أوائل ما طبعته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » . ثم نراه بعد ذلك يؤلف مع الأستاذ زكي نجيب محمود كتاب « قصة الفلسفة اليونانية » ثم « قصة الفلسفة الحديثة » ، وهو كتاب يستعرض تاريخ الفلسفة منذ أقدم عصورها حتى العصر الحاضر ، وقد ألف كذلك كتاباً منذ نحو ربع قرن مضى في الأخلاق للمدارس الثانوية بسط فيه المذاهب الأخلاقية المختلفة . فهذا الاتجاه في التأليف الفلسفي وفي ترجمة الكتب الفلسفية ينبي عن نزعة فلسفية أصيلة أشربت بها نفسه منذ عهد بعيد . فليس من الغريب حين يؤلف في العقلية الإسلامية أن يصطنع مناهج الفلاسفة ويتأثر خطابهم في التفكير ، ويطبق المذاهب الحديثة على بحثه في الحضارة الإسلامية ، فطلع بذلك بآراء جديدة هي ثمرة هذه النزعة الفلسفية الأصيلة في نفسه ، ونتيجة اطلاعه على الفلسفات الحديثة والقديمة على حد سواء .

وتقوم هذه الفلسفة التي انتهى إليها على دعائم ثلاث كما ذكرنا هي الدين والعلم والاجتماع . وهي عناصر متكاملة لا غنى لبعضها عن بعضها الآخر . فإذا شئنا أن نعرف حقيقة العقلية الإسلامية ، فلا بد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين ، وأدواتها التي تبرز بها وتحقق وهي العلوم المختلفة ، وحياتها بل وروحها وهي المراكز الاجتماعية التي تركزت فيها ونمت وترعرعت . أمّا الفلسفة كأفكار مجردة عن الحياة الاجتماعية ، بعيدة عن الحركة العلمية ، فعبارات جوفاء ماتت على أيدي المدرسين ، ولا تتفق مع نشأة الفلسفة حين كانت نابضة بالحياة زمان سقراط وأيام أفلاطون ، بل تصبح جسداً بلا روح .

فالفكر في نظر أحمد أمين أشبه بالنهر الجارى المتدفق ، الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته . ونجد تطبيق هذه الفلسفة واضحة أعظم الموضوع في فجر الإسلام ، ومفصلة في الضحى ، وأشد تفصيلا في ظهر الإسلام .

* * *

وقد اجتمعت له خصال إذا اجتمعت في شخص كان حكما على الحقيقة ، هي : حرية الفكر ، والبعد عن الدجماطيقية ، والترحيب بالنقد ، والجلال والوضوح ، والعناية بالكل دون الأجزاء ، والبحث عن العلل .

كان أحمد أمين حر الفكر إلى أبعد حدود الحرية ، لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يحفل إلا بالحق وحده ، لايهمه مصانعة ذوى السلطان ، أو تملق الجماهير ، أو مشايعة الأهواء . وتبدو هذه الحرية في الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها لمشاعر الجمهور ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد . جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة ، أهل العقل في الإسلام ، ونادى بالرجوع إليه ، مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع ، وحكموا على أصحابه بالكفر ، وحرقوا كتبهم ، ومنعوا تدريسها في مدارسهم . وجاهر برأيه في الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جراء ذلك محنة عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر فجر الإسلام . فنحن نرى أنه لم يبالي بأهل السنة كما لم يبالي بالشيعة في سبيل إعلان رأيه وحرية فكره . وهذا هو شأن الفلاسفة . وقد صحبته هذه الحرية في جميع آرائه الأخرى سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، كما يتضح من النظر إلى مجموعة مقالاته التي جمعها في كتابه الآخر الحافل « فيض الخاطر » . ومن شاء أن يستقصى مذهبه الفلسفي في الحياة ، فعليه أن يتتبع تلك المقالات .

أما العنصر الثانى المكوّن لفلسفته فهو البعد عن الدجماطيقية . والدجماطيقية

هو الذى يقطع برأيه ، ويجزم به ، ويعتقد فيه اعتقاداً يصرفه عن البصر بآراء غيره . ولا تجتمع فلسفة ودجماطيقية ، لأن الفلسفة هى محبة الحق لا الانتصار للرأى حتى لو كان باطلا . ولم يكن أحمد أمين يقطع بالرأى إلا بعد البحث والتنقيب ، وجمع الأدلة والبراهين ، بل كان على استعداد للنزول عن رأيه إذا اتضح له بطلانه ، أو نبهه إليه ناقد .

وهذا يُسَلِّمنا إلى الخصلة الثالثة وهى النقد . والمقصود بالفلسفة النقدية فى الاصطلاح ، خصوصاً بعد كانط ، النظر فى العقل البشرى لمعرفة حدوده ومدى ما يمكن أن يصل إليه . وتقال فلسفة نقدية أيضاً لمن يعدل عن النزعة الدجماطيقية حتى لينتقد نفسه ، كما فعل أفلاطون فى نقده المثل فى محاوره بارميندس . وكان أحمد أمين نقدياً على كلا المعنيين . نظر فى العقل البشرى ، وبين حدوده ، فقال ينتقد المعتزلة والأشعرية فى آخر جزء من ظهر الإسلام : « والناظر إلى هذا الخلاف [يريد الخلاف على الذات والصفات] يرى أن كلا من المعتزلة والأشعرية جاوزوا حدَّهم ودخلوا فى سفسطات لا طائل تحتها ، وليس العقل البشرى بمستطيع شيئاً من ذلك . إننا لا نستطيع أن نقول بالنسبة لأنفسنا إن كان علمنا غير ذاتنا ، وقدرتنا غير ذاتنا ، أو هى هى ، فكيف نستطيع أن نقول ذلك فى الله ؟ إن عقولنا ضعفية لا تصلح إلا لخدمتنا فى الوصول إلى أغراضنا فى الحياة الواقعية . ومحاولة الوقوف على هذه الموضوعات ليست فى متناول العقل البشرى . إن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك حقيقة أى شىء إدراكاً تاماً ، وكل ما لا يستطيع أن يدركه هو بعض صفاته ... الخ » ظهر الإسلام — ج ٤ — ص ٧٦ .

أما النقد المعروف فقبول أحمد أمين له عقب نشر الطبعة الأولى من فجر الإسلام كان يعد حدثاً خطيراً فى الحياة الأدبية والفكرية فى مصر والشرق ، فلم يسبق لكاتب أن فتح صدر مجلته لنشر النقد مهما يكن لاذعاً كما فعل أحمد أمين فى « الثقافة » . وحين أصدر الطبعة الثانية قال فى المقدمة : « وكان

مالقيته من الباحثين من أهل العربية والمستشرقين أكبر مشجع لي على عملي ، فقد نقدوه وقرظوه ، وانتفعت بما أبدوه من آراء قيمة في نقده وتحليله » . وقال في مقدمة الجزء الثالث من ظهر الإسلام : « فأقدم الكتاب على هذا النحو للقراء ، راجياً منهم — لا كما يقول السابقون — أن يفضوا الطرف عما فيه من عيوب ، بل أن يقيدوها ويشرحوها ويبيئونها لي ، حتى أتدرك ما لا يخلو منه مؤلف من خطأ . فالحياة العلمية في كل نوع إنما تحيا بالنقد ، وتتقدم بتمحيص الآراء ، وإظهار العيوب ، وحسن التوجيه » .

ونحن نعتقد أن هذه النزعة الجديدة أثرت في الجيل المعاصر أعظم تأثير ، وسارت بالحياة الفكرية نحو إصابة الحق ، بعد أن كان الكتاب والمفكرون يفرعون من النقد لضعفهم ، ويسير بعضهم في موكب بعضهم الآخر مادحين مقرظين . . . على حساب الحق .

وخصلة رابعة هي الجلاء والوضوح . وإنما جاء هذا الوضوح من أمرين : الأول وضوح الرأي في ذهنه ، والثاني الابتعاد عن التزويق في اللغة . كان يستطيع أن يتقعر ، وأن يسجع ، وأن يجرى على أساليب الجاحظ وغيره من المتقدمين ، ولكنه آثر جلال المعنى على جمال اللفظ ، ورنين الفكرة على جرس العبارة . ودرج على التعبير البسيط الذي يضرب في المعنى إلى الصميم دون برقشة وزر كشة حتى يضرب للناس مثلاً في العناية بالأفكار ، والابتعاد عن الصنعة التقليدية التي قتلت الفكر وأثقلته بهذه الزينة اللفظية .

وخصلة خامسة هي النظرة الكلية الشاملة بغير أن يفرق في التفصيلات . وهذه هي الفلسفة عند بعض المشتغلين بها . يقول ول ديورانت في كتابه « مباهج الفلسفة » : « سوف تُعرِّف الفلسفة على أنها النظرة الكلية ، والعقل الذي يُبَسِّط الحياة ، ويحيل الاضطراب إلى وحدة » . الحق كان أحمد أمين في كتابته للحياة العقلية في الإسلام فيلسوفاً ، لأنه ارتفع إلى هذه النظرة الكلية الشاملة ، وبَسَّط

تلك الحياة بنظره النافذ ، وأحال ما فيها من اضطراب إلى وحدة ، فلم يعد القارئ العربي يحس بإزاء تاريخه أنه في متاهة لا يعرف كيف يدخل إليها ، وكيف السبيل إلى الخروج منها .

وخصلة أخيرة هي الغوص وراء العلل الصحيحة المؤثرة في مظاهر الدين والاجتماع والأدب واللغة . وهو لا يعرض هذه العلل عرضاً أديباً براقاً ، بل يفصلها تفصيلاً ، ويعد الأسباب ويضع لكل علة رقماً ، مما يدل على وضوح الأفكار وتسلسلها . فعل ذلك عند الكلام على أسباب تدهور اللغة ، وتأخر العلوم ، وركود الفلسفة ، وغير ذلك من المباحث التي تناولها .

* * *

وقد أدت هذه الخصال الفلسفية إلى إعلان نتائج عظيمة الخطر في حياتنا الحاضرة ، تختص بالعقل ، والدين ، واللغة ، والعلم ، والاجتماع ، والأدب .
وجملة ما يريد من هذه الأمور كلها هو اطراح التقاليد الثقيلة المعطلة للتقدم والرقى ، والنظر بحرية فكر في كل ناحية من نواحي الحياة . فلا بد في العقل من تحليله ، ومعرفة حدوده ، وبيان الأصول التي يجرى عليها التفكير المستقيم ، والتزام النزعة الواقعية ، ثم تطبيق هذا العقل على مظاهر الحياة المختلفة ، حتى يجرى السلوك على أساس من العقل .

وقد أعلن فيما يختص بالدين عدة آراء تعد ثورة حقيقية في هذا الميدان ، أولها الرجوع إلى مبادئ المعتزلة أى تفسير الدين بالعقل . والثانى فتح باب الاجتهاد حتى لا نظل عبداً لأبى حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل ، وقد كانوا ملأئمين لزمانهم ، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال . والثالث المهادنة بين الشيعة والسنة حتى تتحد كلمة المسلمين ، وخصوصاً أن موضوعات الخلاف بينهما أصبحت في ذمة التاريخ البعيد .

وعلى هذا النحو نادى بإصلاحات اجتماعية ولغوية أترك الحديث عنها لمن
يبحث في آرائه من « فيض الخاطر » مقتصرين على الموضوعات التي تعد من جملة
الفلسفة ، إذا اعتبرنا الدين وثيق الصلة بها .
ولا نزاع في أن هذه الآراء قد أثمرت في الجيل الحديث نتيجة اطلاع الشباب
على كتبه ، والإقبال عليها ، فلا غرابة أن يكون أحمد أمين فيلسوفاً معاصراً موجهاً
للشرق الحديث .

أحمد أمين ... الوالد

بقلم الأستاذ

مهمل أحمد أمين

إن المكان الضخم الذي شغله أحمد أمين في حياته ، هو نفسه الفراغ الذي خلفه بموته . إن قلوبنا قد أوحشها فقده ، بقدر ما كان يشغلها حبه ، والكتابة عنه ، وإن كانت تترك ألماً في نفوسنا ، فإنه من قبيل الألم المحبوب .

* * *

إن أحمد أمين الوالد ، هو نفسه أحمد أمين الأديب والمجاهد والفيلسوف ، ولهذا فإننا — نحن أبناءه — نحفظ له في قلوبنا — قبل كل شيء — بما قدمه لوطننا ، الذي نحن جزء ضئيل منه .

ولكن أحمد أمين قد خصنا نحن بما لا يقدر على شكره من أجله غيرنا . إن أكبر فضل له علينا ، وسنظل دائماً نذكره له ، أنه احتفظ لنا بجزءنا ، وعلمنا كيف نحافظ عليها . لم نحس قط بأنه يقيدنا ، وإنما كان يتركنا لتقيد أنفسنا بضمايرنا .

وقد أشعرت سياسته هذه كلاً منا بواجبه ؛ وإذ كنا ننظر إليه إذا قصرنا لنبحث عن أثر تقصيرنا فيه ، كان سلوكه ينم عن رد واحد : إن نتيجة تقصيرك عائدة عليك وحدك . وبهذا تعودنا ألا نبحث عن أثر أخطائنا في عينه هو ، بل عن أثرها في أعيننا نحن .

كان يحاول دائماً أن يتركنا نصلح أخطاءنا بأنفسنا ، ولهذا لم يكن يتدخل إلا حين يعتقد أن تدخله لم يعد بد منه .

كان يكره الترف لنفسه ولنا ، بل إنه كان بعد أن كبرت سنه ، لا يفكر في أثر الترف عليه هو ، بقدر ما كان يفكر في أثره علينا نحن . إن الأكل والملبس لم يكونا يظفران منه بأية مبالاة ، وكان يجب أن يرى مثل ذلك فينا أيضاً .

قال لنا إنه أجهد نفسه قبل ولادة ابنه الأكبر في محاولة تقرير أفضل الطرق في تربيته ، وأخذ يقرأ كتب التربية وعلم النفس . فلما تمت ولادته كان يبذل عناية فائقة في اختيار أدوات لعبه ، إذ كان يعتقد أنه إذا نجح في أن ينشئ ابنه الأكبر تنشئة سليمة فقد ضمن نجاح الباقيين .

ومع عنايته الشديدة بنا ، كان يتعمد ألا يحقق لنا كل ما نطلبه . كان يحاول أن يعدنا قدر الإمكان لمواجهة الحياة الصعبة من بعده ، وكان يؤمله أن يعود مثلاً من سفره فيجد أحوالنا قد اضطربت ، وأنا جلسنا ننتظر عودته لإصلاحها . وكان يملأنا غبطة أن نراه بالغ الثقة فينا . لقد كان يفاجئ الناس كلهم بثقته فيهم ، فإذا بمن لم يكن يستحقها قد حار أمامها ، وفعل ما يجدر به أن يفعل .

* * *

ما الذي كان يثير اهتمام أبي ؟ ما الذي كان يجلب له السعادة الحقيقية ؟

إنه في يوم واحد نال الدكتوراه الفخرية ، ونال جائزة الدولة للأدب ، وكان محور الاهتمام والتكريم في حفل ضخم بالجامعة أشيد فيه بآثاره الأدبية وبفضله على الجامعة . ولكن كل هذا لم يبد له أثر عليه ، بل إنه قال لنا بعد عودته إنه في مثل هذه الظروف يشعر بشيء أشبه بالاكتئاب .

ولكننا ألفناه يصبح سعيداً كالشباب عند انتهائه من كتابة مقال أو فصل يظفر بإعجابهم . كنا نحس حينئذ بدمه يغلي وقلبه ينبض بالفرح ، وكان سروره بما

كتب أشبه بسرور الأب الفخور بعمل جميل أتاه ابنه ، ولا ينقطع عن الحديث عما كتب حتى يهدأ خفقان قلبه بإفراغه ما في أعماقه .

ومع هذا يصعب القول بأنه كان سعيداً . لقد كانت حياته هادئة ، وكان استقباله للأحداث حلماً رزينا ، ولكن قليلاً من الأشياء كان يستطيع إبهاجه .

* * *

كان يعشق البحر . ما أن يصل معنا إلى المصيف حتى نراه يستنشق نفساً طويلاً بطيئاً ثم يخرج ببطء أيضاً وهو يردد مع خروجه : الله ... الله ... الله ، الأولى طويلة ، ثم تقصر بالتدرج ، ثم ينظر إلينا ، ويطلب إلينا أن نفعل مثل ما فعل .

فإذا شرع في اختيار حجرته ، كانت هي المطلة على البحر دائماً . ولعل قليلاً من يعرف أنه كان بارعاً في السباحة أيضاً ، لم ينقطع عنها إلا بعد إصابته بمرضه الأخير . وكان يطيل استلقائه على ظهره فوق الماء ، مغمض العينين ، ويطول انتظارنا نحن لإفاقته . إنه هو الذى در بنا جميعاً على العموم ، بل هو الذى درب حفيداته أيضاً . وقد ظلت إحداهن ترهبه زمناً طويلاً ، لأنه كان أول من أذاقها ماء البحر .

ومما كان يحمله معه عند عودته إلى المنزل ، مع الكتب والأوراق ، باقة صغيرة من الزهور . وحديثه كانت من الأشياء القليلة التى تبعث في نفسه السرور ، وكان يطيل الحديث مع بستانيه فيما قطفه من زهور ، وما نما وما لم ينم من أشجار .

* * *

وكان يحب الموسيقى الشرقية الحزينة ، ولم تكن تطربه الموسيقى الغربية . وعلى الرغم من كثرة اشتغاله بالقراءة والتأليف فلم يكن يغفل صحبتنا ، وكثيراً

ما كان ينفق أوقاتاً يلهو معنا لهواً راقياً ، كان يلعب الشطرنج مع جميع أولاده ، وهو الذى علمنا هذه اللعبة . وكان ينتصر علينا فى معظم الأوقات .

* * *

أما السياسة فكانت قليلة الشأن عنده ، لم تكن مهنتها مما يقدره ، ولا مجدها مما يصبو إليه ، ولا حديثها مما يجب أن يطيل فى الاستماع له . ومع ذلك كانت حوادثها — إذا تعلقت ببلده — بالغة الأثر عليه . بل إن والدتى لتقص علينا أن خبراً سياسياً سيئاً كان أحياناً يكدره لبضعة أيام ، ولهذا السبب كنا فى مرضه الأخير نتعمد أن لا يصل إليه ما كان يجرى من أحداث .

وكان يؤمن إيماناً عميقاً بالديمقراطية ، ورأيه أن الاستبداد « يجعل من النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفاً ، والنذالة دمانه وظرفاً » .
وكان يكره النفاق ، فإذا عين صديق له فى منصب كبير ، لم يذهب لتهنئته ، ولكنه إذا خرج منه يذهب ليسرى عنه . كان يقول إنه يكون فى حاجة إلى حين يترك المنصب لا حين يليه .

* * *

كان يكره المظهر فى كل شيء ، فكان الأسلوب فى الكتابة قليل الشأن عنده ، وكان يسره ما يقوله له تلاميذه من إنهم لا يستطيعون تلخيص دروسه لشدة تركيزها .

إنه بذل كل حياته للكتابة . لقد كان بإمكانه — لو أراد — أن يعيش أكثر مما عاش ، ولطالما ألحنا عليه ، فى أن يترك عمله وتأليفه ويستريح ، ولكنه كان يقول . إنه يموت كمداً لو قرر أن يستريح . بل إن أعوامه الأخيرة كانت

أحفل أعوامه بالإنتاج فلم يكن يفرغ من كتاب حتى يبدأ في غيره . ومات
وقد خلف وراءه ثلاثة كتب لم تنشر .

وقد أثر فيه كثيرا أن أصبح ضعف عينيه يحول دون أن يقرأ ويكتب كما كان
يريد ، واضطره إلى الاستعانة بمن يقرأ ويكتب له . وكان يقول أسفاً إنه كان في
صحته يمسك مرجعاً من المراجع فينقلب صفحاته فلا يلبث أن يعثر على الصفحة
فلا يلبث أن يعثر على الصفحة التي يريد في لحظة ، فإذا به بعد أن ضعف بصره
يقضى زماناً طويلاً يبحث عن الموضوع الذي يفنده ، ولم يكن باستطاعة أحد أن
يعينه في ذلك .

* * *

كانت قوته النفسانية عظيمة إلى أعظم الحدود ، فلما مرض في السنوات
الأخيرة أصيب بالآلام نفسية لا حد لها . حرمه ضعف بصره من أن يقرأ ويكتب
بنفسه ، وكان ذلك قاسياً عليه ، وحرمه ضعف جسمه من أن يمارس كثيرا من
النشاط الذي اعتاده وكان يجد فيه لذة كبرى له . ثم بدأ في السنتين الأخيرتين
يشعر بالآلام حمة في صدره . ولكنه كان في تحمل آلامه كالصخر . وفي الوقت
الذي كان يبدو أشد الناس حاجة إلى شخص يسرى عنه كان يفضل أن يتلعب هو
ألمه ولا يبديه .

في شهوره الأخيرة كان يستيقظ عدة مرات أثناء الليل ، وكان في بادئ
الأمر يوقد النور ، فرأى أننا حين نحس باستيقاظه نذهب إليه ، ولا نتركه حتى
ينام ، فأصبح إذا استيقظ يظل وحده في الظلام لكيلا يوقظنا .

وفي ليلته الأخيرة عاودته آلامه وأيقظنا توجهه إوهرعنا إليه ، فكان
لا يلبث كل لحظة أن يلح علينا في أن نذهب نحن لننام وأنه لم يلبث أن يستريح .

كان أبى من هؤلاء القلة الذين يطوون الآلام على أنفسهم ، ولا يشركون
غيرهم فيها .

* * *

لقد أصبح كل شيء فى بيته ، كما فى خارج بيته ، يفتقده . حتى الشجرة
الصغيرة فى حديقته التى كان معنياً به قد ذبلت بعده .

لقد ظفر الموت فى النهاية بمن كتب طويلاً عن الموت والحياة .
ومع هذا فإن كنا جميعاً سواء أمام الموت ، فليس حظنا فى الحياة واحداً .
وقد استطاع أبى أن يتفوق بحياته .

أحمد أمين ... القاضي

بقلم الأستاذ

حسن مهدي

نشأ المرحوم الدكتور أحمد أمين نشأة توهله لأن يكون « عالماً » لا لأن يكون « قاضياً ». فقد كان والده من رجال العلم والتعليم وقد وصفه عليه رحمة الله في كتابه « حياتي » فقال إنه كان « يحاسب أولاده على تعلمهم محاسبة عسيرة ، فهو يمتحنهم دائماً في حفظ القرآن وحفظ المتن ، وفي فهم دروسهم ، فإذا أخطأوا حسبل وحوقل ، وقد يغضب ويضرب ... وكل صحبتنا له كانت صحبة درس جديد أو امتحان في درس قديم . ولا أذكر أنه مزح معنا ، وقل أن نضحك في وجوهنا . ولذلك كان اطمئناننا ومرحنا القليل ساعة يغيب عن البيت ، وخوفنا ورهبتنا وجس أنفاسنا ساعة يحضر » .

* * *

وقد تقلب الدكتور أحمد أمين في أيام دراسته الأولى بين مختلف المدارس والمعاهد حتى انتهى إلى مدرسة القضاء الشرعي فآتم دراسته بها ، وتخرج فيها ، ووقف الوقفة الحاسمة التي يقفها كل متخرج بعد إتمام دراسته ليختار طريقه في الحياة . وكانت دراسته في تلك المدرسة توهله للاشتغال بالتعليم فيها ، أو للعمل في « القضاء » . فلم يتردد في الاختيار ، وأتجه من فوره إلى البقاء في معهده الذي تخرج فيه ليعمل مدرسا به . وظل فيه أكثر من عشرة أعوام وهو يقرأ ويؤلف ويبني أجنحته القوية التي حلق بها فيما بعد في سماوات العلم والتأليف العلمي — وكان انتقاله إلى « القضاء » بعد هذه الفترة الطويلة التي قضاه في العلم والتعليم

بمثابة محنة من الحنن التي يصاب بها المؤمنون . وإني أفضل في هذا المقام أن أستعير كلماته التي خطها بيده ليصف الهزة التي عمرته على أثر هذا الانتقال . قال : — صدر الأمر بنقلى إلى القضاء فعينت قاضياً في محكمة قويسنا الشرعية . وكان هذا آخر العهد بتدريسي بالمدرسة . وانهت بذلك مرحلة طويلة هي زهرة العمر تقريباً . . . خمسة عشر عاماً من سنى الشباب بين طالب ومدرس نلت فيها أكثر ثقافتى ، وجربت فيها أكثر تجاربي في الحياة ، وتعلمت ما استطعت من العلم ومن الناس ، ولقيت فيها أكبر الشخصيات التي أثرت في نفسى ، وطُبعتُ فيها بطابع لازمنى طول حياتى — دخلتها مغمض العينين ليس عندى إلا قليل من التجارب ، وخرجت منها شيئاً آخر . لذلك بكيت عليها كما أبكى على فقد أب أو أم أو أخ شقيق . ومما آلمنى (وهنا بيت القصيد) أنى تركت التدريس وهو ما أحبه إلى القضاء وهو ما لا أحبه » .

والقضاء في ذاته مهنة سامية يتنافس فيها المتنافسون ، فهي صناعة من صناعات الله سبحانه وتعالى . وصاحبها موضع التبجيل والتكريم حيثما حل أو أقام . ولا يلمس القاضى في عمله شيئاً من ذلك الضغط التقليدى الذى قد يرزح تحت نيره غيره من أصحاب المهن الأخرى ، فهو يستمتع في عمله بكامل حريته واستقلاله ، ولا يحس وطأة رقيب عليه اللهم إلا رقابة ضميره ومخافة الله . فإذا قال رجل عاقل إنه لا يجب القضاء ، فعنى ذلك على الأصح أنه يجب شيئاً آخر أكثر من حبه للقضاء . وهذا الشيء الآخر الذى كان يحبه الدكتور أحمد أمين هو حياة العلم والتعليم . . . وهو اتصاله الدائم في تلك البيئة الملمية بهائيك الشخصيات الكبيرة التى يقول عنها إنها أثرت في نفسه ، وطبعته بتلك الطوابع البارزة التى لازمته طول حياته . ومثل هذا الكلام يصبح أكثر فهماً ووضوحاً حين يعرف الإنسان

أن الدكتور أحمد أمين عليه رحمه الله كان يشير في كلامه هذا إلى شخصية كشخصية عاطف بركات مثلاً — ناظر مدرسة القضاء الشرعى — وأمثال عاطف بركات من أفذاذ الرجال الذين يخلو العيش في كنفهم، وتطيب الحياة إلى جوارهم، وترتفع روح الجليس الذى يخاطبهم إلى ذلك المستوى العالى الذى يعيشون هم فيه .

* * *

ومسألة أخرى فيما أعتقد كان لها أثرها أيضاً فى ازورار الدكتور أحمد أمين عن مهنة القضاء وعدم ارتياحه لها — وذلك ما عبر عنه هو فى « حياته » بقوله : « ظلت فى القضاء أربع سنين ... سنة فى قويسنا ، سنة فى طوخ ، وسنتين فى محكمة الأزبكية . ومع ذلك فلم استمرى القضاء ولم أسعد به — كل ما أراه أسرف قد خربت ، أما الأسرة السعيدة فلا أراها : زوجة تطلب نفقة من زوجها — وزوج يطلب الطاعة من زوجته . فيحكم بالنفقة على الزوج فإن لم يدفع فيحكم بالحبس ... ويحكم بالطاعة على الزوجة ، فإن لم تستسلم نقلت بقوة البوليس إلى بيت زوجها ، — وظلت أحكم بالطاعة وأنا لا أستسيغها ولا أتصورها ... كيف تؤخذ المرأة من بيتها بالبوليس وتوضع فى بيت الزوج بالبوليس كذلك ؟ وكيف تكون هذه حياة زوجية ؟ إنى أفهم قوة البوليس فى تنفيذ الأمور المادية كرد قطعة أرض إلى صاحبها ، ووضع المحكوم عليه فى السجن ، وتنفيذ حكم الإعدام ، ونحو ذلك من الأمور المالية أو الجنائية . أما تنفيذ المعيشة الزوجية بالبوليس فلم أفهمه مطلقاً إلا إذا فهمت حباً يكره أو مودة بالسيف . ولهذا كنت أصدر هذه الأحكام بالتقاليد لا بالضمير ، وبما فى الكتب والقوانين واللوائح لا بالقلب ، وكنت أشعر شعور من يمضغ الحصى أو يتجرع الدواء المرير ! » :

* * *

وأنا أقول إن « مضغ الحصى » و « طعم الدواء المرير » لا يعرفه إلا القاضى

المصلح الذى يرحى خيره ، وتلتبس عنده وجوه الإصلاح . فإن أولى بشارات التقدم عدم استساغة الأوضاع القائمة . أما القاضى الذى يستسلم للنصوص فيطبقها تطبيقا آليا دون أن يعيش فيها ويستشعر شعور من يطبقها عليهم فهو ليس إلا قفازا خشنا فى يد القانون ، وليس هو بالآدمى الإنسان الذى يستلهم قضاءه من عدل الله وصفاته على النحو الذى ينبغى أن يكون عليه القاضى الكامل .

فكراهية الدكتور أحمد أمين للقضاء لم يكن معناها أنه قصر فى أداء رسالته كقاض ، ولكن معناها أنه أحس بعبء المهنة فاسيا يثقل ضميره ويقض مضجعه ، وقد يكون رحمه الله رأى أن يؤثر التارق فى البحث العلمى على معاناة السهر فى حمل هموم الناس وآلامهم . والشأن فى ذلك شأنه وشأن مزاجه الخاص . أما ما يعنيننا نحن من أمره فإنه على أية حال لم يكن يؤثر النوم والراحة وحياة التحول . ولئن كان أحمد أمين القاضى قضى سنواته الأربع فى خدمة القضاء وهو على مضض فإن سعداء الحظ من المتقاضين هم الذين نعموا بجلوسه على كرسى القضاء طوال هذه الفترة . وإلا فمن كان للزوج المقل بمن يرحمه من زوجته العنيدة ، ويمحيه من كيدھا المبيت وهى لا تطالبه بالنفقة إلا رغبة منها فى إذلاله وإعناته — ومن للزوجة المستضعفة بمن يدفع عنها بطش زوجها المستبد الذى لا يطلبها للطاعة إلا لجدع أنفها وتمريغ خديها فى التراب ؟ إن أحكام أحمد أمين — القاضى — لم تنشر ، ولكننا نحن عرفنا منها الكثير أثناء أحاديثنا ونجوانا ، ولحنا فيها مخايل الاجتهاد الذى لا يعرف الجلود ، والذى يؤمن بأن الأحكام تتغير بتغير الظروف ، والذى يشمل كل شىء حتى تقييد النص ووقف العمل به . وإنه ليتأسى فى ذلك بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان يروى لنا عنه أنه مثلا لم يرد أن يعطى المؤلفلة قلوبهم من الزكاة لأنه أدار الحكم على العلة وجودا وعدما ، فلما لم يكن الإسلام فى حاجة إلى تأليف القلوب لكثرة من دخل فى الدين الاسلامى ، وقف إعطاءهم

الزكاة . وكما حد المسلم حد الشرب ورآه بعد ذلك قد تنصر والتحق بالقسطنطينية ، آلى على نفسه أن لا يحد مسلما بعد ذلك . وسرق مسلم بن مُزَيْنَةَ في أيام الجماعة ، فأمر بحده ثم أمر برده ، وألزم قبيلته أن تدفع ثمن الفاقة وقال : إنكم أجمعتموهم فسرقوا ... إلى كثير من أمثال ذلك .

* * *

أما بعد . فلقد أرقنا نحن كما أرق من قبلنا القاضى أحمد أمين ، وكان سبب تأريقنا ما كنا نحسه من أثر سبب للعقوبات التى يفرضها القانون على الجناة من غير تمييز بينهم . فالسارق فى نظر القانون لص يستحق العقاب سواء أ كان قد سرق رغيفا ليطعم صغاره أو كان قد ابتز أموال المحتاجين لينفقها هو عن سعة فى اليسر وفى المواخير . فجعلنا نطبق أحكام القانون على الفريقين ونصيح فى الوقت نفسه مطالبين بالإصلاح حتى اتهمينا إلى ما اتهمينا إليه اليوم من إثارة وعى المشرع لأمثال هذه المفارقات . ومن هنا صدرت التشريعات الإصلاحية تترى . وأصبح من الممكن اليوم وقف تنفيذ عقوبة الغرامة بعد أن كانت الغرامة تنفذ ولو بالإكراه المدنى حتى على من لا يستطيع أداءها . كما أصبح من الممكن وقف تنفيذ الحكم الصادر فى الجناية بعد أن كان لا يوقف إلا تنفيذ الأحكام التى تصدر فى قضايا الجنيح ؛ وأخيرا جاءت التشريعات الحديثة التى تعمل على إسقاط السابقة الأولى من صحيفة الجانى حتى لا تغفل فى وجهه أبواب المستقبل بسبب سقطة عابرة أو زلة ورطبه فيها الظروف ولولم نكن قد « مضغنا الحصى » ونحن نطبق العقوبات الأولى على مضمض لبقيت تلك المظالم القائمة إلى اليوم يتجرع مرارتها أناس تنفعهم (الرحمة) أ كثر مما ينفعهم (القانون) .

* * *

رحم الله أحمد أمين القاضى المصلح عداد نواياه الطيبة ومساغيه الجميلة ، وسلكه عنده فى زمرة الأخيار وصفوة الأطهار الأبرار .

طيف الأملين

بقلم الدكتور

زكي المواسي

يا صورة الخلد من أبدك في الخلد
سحر البيان أم الطمّاح للأبد
مثلت وجهك بالأنوار طافية
من كوكب بمزايا الفكر منفرد
ذاب الفناء على أطراف دولته
ولف لف العدم الأصداء بالتفد
لموت أهكومة مرت مذاقتها
يكرّر الدهر بلواها على الأمد
لولا تناغم أرواح مدومة
ترف بالصبح مثل الطائر الفرد
تطيف بالعقريات التي غربت
عنا لتطلع في آفاقها الجدد
لضاع وجد قلوب من شقاوتها
في عالم ضجّ بالعدوان والحسد
(أمين) ياروعة التاريخ في رجل
كأنه أمة مواجهة العدد

تصنّف الرأى فى الآداب حكّمه
وتجمع النصّ من أرجائه البـدّد
من فبجر إسلامه شعت منارته
ومن ضحاه أناه الحقّ بالأيد
تقول آثاره لله ما صنعنت
أقلامه فى لىالى الداب والجلد
لم يُعن فى زُخرفٍ باللفظ مطلقه
فصان تعبيره عن لُعبة الفنـد
استبح بأفكاره من غير ما غرق
وأسعد بكتب رعاه الصدق بالسند
أعلم جامعة أبقى (الأمين) لنا
أم مكتبات جلاها اليوم رهن غد
ما صورة الجسم إن زالت معاله
وإن أندب أطلالاً من الجسد
كان الحجى إلى الدنيا ضلال هوى
فلا تضللّ أبا العلياء عن رُشد
نرضى زيادة يومٍ من أحببنا
فيا حبيبُ ببعدٍ منك لا تعبد
هذا الخيال وراء النفس يغمرنى
فكيف أطلقه من سِرِّ ملتجـد

ماحقَّ فيك زوالُ جَفٍّ مدمعهُ
وكَمْ عَزَاءٌ بلا معنى ولا صَدَدِ
قل لي - وتَسْمَعُ من خلفِ الغيوبِ لُغِيَّ -
ماذا ترى من فراديسٍ ومِنْ بَلَدِ
أجلِسُ لك في الأرواحِ تعقُدُهُ
على حديثٍ صفا أو بحثٍ منتقدِ
أدِرْ بِسُبْحَةِ طيبِ الحِوَارِ فما
فيضُ الخواطرِ إلا منك طوعَ يَدِ
يا (أحمد) الصنْعُ ذكراك التي انبعثت
حمداً لمسعاك أو وجداً على الكبدِ
عزّتْ بها مصر في تشييدِ نهضتها
كشغلةٍ منك للأجيالِ والوَلَدِ

أحمد أمين... الجامعي

بقلم الدكتور

سوفي ضيف

كان أحمد أمين قُدوةً مُثَلًى لتلاميذه في الجامعة من الناحيتين الخلقية والعلمية ، أما من الناحية الخلقية فكان باراً بهم ، يخلص كل واحد منهم بقسط من عنايته واهتمامه ، في وفاء أصيل وتواضع جميل ، فلا تعالى ولا كبرياء ، وإنما القرب والألفة وشفقة الوالد على أبنائه .

فكنا منذ تعرفنا عليه نشعر أننا لسنا في بيئة غريبة عنا ، بل نحن معه نؤلف أسرة قوامها التعاون على الخير ، وأساسها التعاطف الكامل الذي يوحد بين الأساتذة وتلاميذهم ، فإذا هم ينشدون وجهة واحدة من البحث العلمي الخالص لوجه الوطن ووجه الحق .

وأشربَ قلبُ أحمد أمين محبةَ الحق كما أشربَ محبةَ الحرية منذ شبابه الأول ، فقد تعود أن يقول الحق في صراحة وحرية غير مفتعلة ، وكان له في ذلك مواقف معروفة ، وظل حتى آخر حياته لا يقول إلا ما يؤمن به إيماناً عميقاً في ذات نفسه .

وليس معنى ذلك أنه كان يتعبد للآراء التي يصل إليها ، بل كان يُمرّ تناعلى خلافه وأن ترى الرأي مناقضاً لرأيه ، يريد بذلك أن تكون لنا أصالتنا في الفهم والحكم ، لا مجرد الجدل والمناقشة في غير طائل .

وكان كل ما يحكم به أن ترفع الحواجز بين الطلاب في الجامعة وأساتذتهم وأن لا يكتفوا بما يدون في المحاضرات ، بل يتحولوا إلى الأروقة وحجّر البحث

يتجادلون ويتحاورون ، لا فرق بين كبير وصغير ولا شيخ ولا شاب إلا بمقدار التجربة والسبق إلى معرفة الحقيقة ، فإذا أثبت شاب أن عنده دقة في الفهم وأنه يحسن تصور المسائل والحكم عليها كان أول من يشدّ على يديه .

كنا نلتفّ حوله ونبادره بالأسئلة ومناقشة آرائه ، وكثيراً ما كنا نخالفه ، فلا يتبرم ولا يضيق بنا ، يقبل علينا ، ويشجعنا أن نمضى في خلافه ، وأن نبسط رأينا بكل دقائقه ، وبكل ما يسنده من أدلة وبراهين ، فإذا تبين له أنه على خطأ أعلن عن رضا أنه أخطأ وأن الحق في جانب الطالب ، وأنه يشكره ويثنى عليه . ولهذا الروح العادلة فيه كنا نحبه ، ونخلص له . ويظهر أنه كان لحياته الأولى في القضاء أثر واسع في هذه العدالة ، فقد انتقل إلى التدريس في الجامعة ، ولكن ظل مُمسِكاً بموازين العدل في آرائه وما ينثره من أحكامه ، فلا هوّى ولا تحيز ولا تعصب .

وكان يعجب لمن يتعصبون لآرائهم أو يتحيزون ، فالعلم في رأيه لا يعرف التحيز والتعصب ، بل هما عدواه اللدودان ، فمن تعود أن يحملهما كان حريابه أن لا يجمع بينهما وبين العلم لا في عقله ولا في صدره . وكان يقول فيم تتعصب وقد خلقنا الله أحرارا ، كأنه كان يعتقد أن التعصب ضرب من ضروب العبودية يخالف معاني الإنسانية ومثلها الرفيعة .

ومن أشد ما كان يحرص عليه غرس المثالية الخلقية في نفوس تلاميذه ، فكان يقول إن العلم بدون خلق ليس شيئاً مذكورا ، وكان ما يزال يعود طلابه أن يغاروا على الفضيلة وينفروا من الرذيلة ومن كل عمل مستهجن يشين صاحبه . وكان كل همه أن يخلق منا باحثين ، وكان لا يدخر جهداً في غايته من ذلك ، فهو ينوه تارة بمن يقدمون بعض البحوث ، وتارة يسعي إلى نشرها في المجلات والصحف ، وكان إذا قرأ لأحدنا مقالا في موضوع أدبي أشاد به بين

إخوانه ، ودعاهم إلى أن يحدوا حذوه . ولما اشتهر أحد خريجي قسم اللغة العربية في صحافة وغير صحافة إلا كان لأحمد أمين فضل تشجيعه واستغلال ملكاته .

وكان يدرس لنا الحياة العقلية ونشأتها عند العرب وتطورها في العصرين الأموي والعباسي ، فيحلل عناصرها تحليلا دقيقا ، ويردها إلى أصولها العربية والأجنبية من فارسية ويونانية وهندية . وما زال يسلط أشعة عقله وبحته على هذه الحياة حتى استنارت لنا من جميع جوانبها ، وإذا الذي كنا نظنه شيئا عسير الفهم بعيدا عن عقولنا وتفكيرنا من فقه وحديث وألوان ثقافات مختلفة قد أصبح دانيا منا مألوفا لنا ، وأصبحنا نتمثله ، بل تدخّلنا في فهمه والحكم عليه وعلى أصحابه .

ولم يكن يسوق آراءه في هذه الحياة منبئة الصلة بآراء من سبقوه ، بل كان يعتمد إلى هذه الآراء في مظانها العربية والغربية فيقرؤها ويعرضها علينا عرضا واضحا ، وما يزال يناقشها حتى يستخرج لنفسه رأيا جديدا يستمدّه عن نظرة عادلة حقة . وكان إذا انتهى إلى رأى معين أصبح يؤمن به ، ولم يعد يخاف فيه من مخالفته ، بل يعلنه قاطعا صريحا فلا حياة ولا موارد في العلم .

وقد غضب الشيعة حين عرض للتشيع في كتبه ، وخاصة في فجر الإسلام ، وحملوا عليه حملات شعواء ، ولكنه كان يلتقها بصدر رحب ، ولم تستطع هذه الحملات أن تغير رأيه ، بل ظل حتى آخر حياته يعتقد أنه لم يتجنّ عليهم ، وقد عاد إلى الكتابة آخر حياته عن التشيع والمهدى والمهدوية ، فلم يعدل عن آرائه القديمة ، إذ اعتقد فيها أنها الحق ، فلم يعد يخشى لومة لائم .

وهو كذلك في الكتابة عن أهل السنة ، كان ينقدهم نقدا عادلا ، فكان يأخذ عليهم أنهم لم يوسعوا آفاق فكرهم بل ظلوا به محصورا في آحاد محدودة من المحافظة ، بينما كان يعجب بالمعتزلة وعقلهم الحر الذي حكّمه في الأشياء وفي الأشخاص وفي أصول الدين والعقيدة .

ولم يكن في كل هذا يتعنّت أو يخرج عن حده الطبيعي ، بل كان مع مخالفته

لبعض الفرق الإسلامية في آرائها وتقدها يعطف عليها ويتمنى لو لم تكن هذه الفرقة في الإسلام ، ويود لو أنها تقاربت ، ولم تقف كل منها بعيدة عن صاحبها ، فالمؤمنون إخوة ، وحرى بهم أن يتعاونوا ، وأن لا يسود بينهم خلاف بأى وجه من الوجوه ، حتى لا يضعفوا أمام خصومهم الحقيقيين من الأوربيين المستعمرين . وعلى هذا النحو كان له في أبحاثه الجامعية أسلوب واضح وأهداف واضحة ، وكان كل ما يهيمه أن يخرج منا علماء قادرين على البحث المتشد المنظم . وكان دائما يوصينا أن يتعرف كل منا على طبيعته وما يجب أن يعمل في غده ويتخصص فيه ، ويُعد نفسه لذلك منذ تلمذته حتى لا تفوته فرصة الوقت . وكثيرا ما كان ينصحنا أن نهتم بطريقة الجذاذات وأن نتعود جمع المعلومات ، فإذا قرأنا كتابا قديما أو حديثا قدينا أهم ما فيه من مسائل ، حتى إذا احتجنا لها في المستقبل لم نضطر إلى قراءة الكتاب كله ، وخاصة الكتب القديمة لأنها غير مفهومة ، وكثير منها غير مبوّب . وكان يقول ليتنى عرفت في مطلع شبابي أنني سأهتم بدرس الحياة العقلية عند العرب إذن هان على الطريق .

وكان من أشد ما يكرهه المناقشة اللفظية غير المجدية وما ينطوى فيها من مغالطات ، وكان يقول لنا إن هذه طريقة قد بليت ، وحلت محلها طريقة عقلية أخرى ، هي طريقة التحليل والاستقراء ؛ أما الوقوف عند الألفاظ فإنها لا تفيد شيئا سوى ضياع الوقت ، إن كان هذا مما يعد فائدة . وماذا تفيد من تحقيق هذه الكلمة أو تلك وربما كان كل ما تؤديه هي وأخواتها لونا من ألوان الغلط في الفكر . إن المهم ليس الكلمة وتحقيقها ، إنما المهم للموضوع وتشقيق معانيه ومعرفة خطوطه الأساسية والفرعية . ولقد أسرف القدماء في بحث الكلمات والألفاظ كما ترون في حواشى علوم النحو والبلاغة ، وما أفاده الأدب من ذلك قليل ، بل لقد انفصلت هذه الأبحاث عن الأدب ، لأنها دارت في مجالات لفظية لا قيمة لها ولا غناء فيها . فإياكم أن تعودوا بنا إليها وأن تظنوا أنكم بهذا التشدق قد أحسستم شيئا ، بل

على العكس تكونون قد انصرفتم عن واجبكم وعن مشا كلكم الذهنية الحقيقية إلى مشا كل لفظية فارغة . وبدلا من أن تضيعوا أوقاتكم في تحقيق كلمة أو لفظة ضيَعوها ، بل اكسبوها واربحوها في تحقيق كتاب ، بمعنى أن تلخصوه في مقال أو مقالين ، وحبذا لو عرفتم ما فات صاحبه ، ولكن لا لتقرّعه ، بل لتنبهوه ، فيكفيه فضلا أنه السابق ، وما كان لسابق أن يمنع لاحقا من الزيادة عليه أو من نقده في موضع النقد الصحيح .

وأقرها منصفًا إن أحد أمين كان مثلا ممتازا للجامعي العالم الذي يستهدف الحقيقة في أبحاثه ، كما يستهدف تعليم استنباطها لتلاميذه . وكان يضرب لهم خير الأمثلة في دراسته للحياة العقلية العربية ، فهو يبحث بحثا هادئا متزنا في طبقات هذا العقل ويردها إلى مكوناتها وجزئياتها ؛ بل ذراتها المختلفة ، ويتعقبها في أصولها منذ الجاهلية وفروعها وما رسب عليها في الإسلام .

وليس البحث مجرد كلام أو تهويلات أو طنين ورنين ، بل البحث نصوص ودأب في الحصول على النصوص من بطون الكتب القديمة وذخائر العقل العربي ، ثم مقابلة واسعة لهذه النصوص ، وتحليل بارع لها في مخاير العقل ، وتسجيل لهذا التحليل في نزاهة وإنصاف .

وكان من أهم ما يروعنا عنده كثرة اطلاعه ، فقد تحولت عنده القراءة إلى هواية يجد فيها كل ما تشتهي نفسه وتقرّ به عينه ، وكأنها أصبحت نزهة ، ويلذه أن يقطع هذه النزّهات ، ثم يقص على طلابه وقرائه ما رآه فيها بدون تحيز وبدون محاولة لاعتساف رأي ، بل مع التواضع الشديد .

ومن الناس من يحدثون ضجيجا هائلا حين يصلون إلى فكرة جديدة أو يكتشفون معنى جديدا ، وم وصل أحمد أمين إلى فكر ومعان ، بل إلى أبحاث تامة ، بل لقد أثار عوالم كاملة من حياة العرب العقلية في عصورهم المختلفة ، ومع

ذلك لم يهول على الناس ولم يحدث جلبه ولا فرقة ، بل كان مثال العالم الحق الذي ينكر نفسه ويترك للناس أن يكتشفوه ويعرفوه .

ويدرس أحمد أمين البلاغة العربية ، فيراها قاصرة عن أن تحيط بقواعد الأدب الحديث الذي يستمد أعلامه من الغرب وآثاره ، فرأى أن يقرأ البلاغة الغربية والنقد الغربي ، ليفصل لبلاغتنا ثوبا جديدا لا يضيق بأدبنا الحديث ولا يقصر عن أن يحيط به .

وكان كلما درس في الأدب موضوعا ورأى له نظيرا عند الغربيين قرنه به ، فإذا درس الطبيعة عند شعراء العرب قرنها بالطبيعة عند أصحاب المنزج المعروف بالرومانسية الذي شاع في أوربا أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . وهكذا كان لا يزال يتعب نفسه ، ولا يزال يطلب المثل الأعلى في الدرس ، وكلما اجتاز عقبة فكَّر في اجتياز أخرى ، حتى إذا هانت له واجتازها تحول إلى عقبة جديدة دون أن يكلَّ أو يمل .

وهو في كل ما حاول من بحث لم يكن يزعم أنه وصل إلى الكلمة الأخيرة ، بل كان يردد أنه يقول الكلمة الأولى ، ولغيره أن يقول من بعده كلماته ، فالأبحاث أبوابها مفتوحة ، ومن شأنها أن تظل مفتوحة دائما ، ليلقى كل باحث بآرائه وأفكاره وما انتهى إليه .

ولعل في هذا كله ما يوضح كيف كان أحمد أمين مثالا كريما للأستاذ الجامعي في خلقه وعلمه ، وهو مَثَلٌ يقوم على الإيثار ومحبة الخير والحق ، وأن يكون الإنسان منصفًا لنفسه ولغيره من الناس ، وأن يكون متواضعا متواضعا أصيلا في ذاته وفي بحثه ، لا تأخذه عزة العلم بفرور ولا إنهم .

أحمد أمين ... العالم

بقلم الدكتور

طه حسين

رأى ضحى ذلك اليوم غارقاً مع أحد الأصدقاء فى كتاب قديم من كتب الأدب العربى نهيبته للنشر ، وكنا مقبلين عليه أشد الإقبال حتى صرفنا عن كل شىء وعن كل إنسان وحتى كدنا نصبح نصاً من هذه النصوص القديمة الرائعة التى كنا نقرأها ونقومها ، وكانت تبلغ قلوبنا فتملكها وتبلغ عقولنا فتبهرها . وكان أبغض شىء إلينا فى ذلك الضحى أن يقطع علينا ما نحن فيه زائر مفاجئ أو حديث يحمله التليفون .

وقد أبى الله إلا أن يمتحننا من ذلك بما نكره ، فهذا التليفون يصلصل ، وليس بد من الرد عليه ، ولكن الرد عليه يحمل إلينا أبغض الأنباء موقعا من آذنتنا وأثقلها على قلوبنا . . . فهو يعنى إلينا صديقا حميما وزميلا كريما وأخا طالما نعمنا بما كان إخاؤه يمتعنا به من الأناس والبشر فى أيام الشدة .

وكنت أعلم أن هذا الأخ الكريم مريض ، ولكنى كنت أعلم أنه كان أقوى من مرضه ، فكان يكابره أشد المكابرة ، ويعاند آلامه أعظم العناد لا يذعن له إلا ريثما يثور به ؛ ولا يستجيب لدعاء الطيب إلى الراحة إلا ريثما يخالف عن أمر الطيب ويلقى بنفسه إلى الجذ والكد والعناء .

كانت حياته كلها مغالبة لم تستقم له الأمور على ما أحب فى يوم من الأيام منذ كان صبيا يختلف إلى الكتاب حتى أصبح شيخا يختلف إلى مجالس الزملاء والأصدقاء فى المجمع اللغوى ، وفى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكانت أحكامه

على أموره كأحكام غيره من الناس تخطىء وتصيب ، ولكنها كانت تتفق دائماً على شيء واحد وهو أنها كانت تصور له الأمور على غير ما يجب أن تكون وتدفعه إلى الجهاد والمقاومة والمغالبة ، فكانت حياته نشاطاً متصلًا وصراعاً غير منقطع ، وكان أثقل شيء عليه وأبغض شيء إليه فيما علمت منه وفيما سمعت عنه أن لا يجد في نفسه القدرة على النشاط ، والصراع ، والمغالبة ، وأن تعوزه الأدوات التي تتيح له ما كان يجب من النشاط والصراع والمغالبة .

كان يريد أن يغير الدنيا من حوله . وليس تغير الدنيا ميسراً للناس جميعاً ولكنه كان يريد أن يحاول من ذلك ما يستطيع ، فيستقيم له التغير في بيئته الخاصة وفي بيئته الجامعية بعض الشيء ، ويستعصى عليه في بيئات كثيرة كل الاستعصاء فيسعد قليلاً ، ويشقى كثيراً ، فكانت تراه دائماً قليل الرضى كثير السخط ، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن يكون متصلاً حتى أنكر من نفسه كثيراً من أمره ، وحتى أنكر الناس منه كثيراً من أمره أيضاً ، وحتى نظر إليه زملاؤه وأصدقاؤه نظرة فيها كثير من الحفظ والاحتياط ، فكانوا يتحدثون إليه مشفقين من ثورته ، أو متوقعين لثورته . وكانوا يتكلفون من الرفق به أكثر مما كانوا يتكلفون حين كانوا يتحدثون إلى غيره من الأصدقاء . وربما تندر به زملاؤه وأصدقاؤه وداعبوه في شيء كثير من الحب والرفق فسموه «العدل» ونادوه بهذا الاسم وتحدثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث ، حتى كاد العدل يصبح له اسماً ثانياً . ولم يكن لهذا كله مصدر غير تخرجه المتصل وتحفظه المقيم وتعرضه لالتماس الصعب من الأمر وتجنبه ما كان من الأمر يسيراً قريباً .

وما أشك في أن موقع نعيه من نفوس الذين عرفوه من قرب أو من بعد قد كان موقع الخطب المفزع الممض ؛ ولكن الشيء الذي أشك فيه وأرجو كل الرجاء أن أكون مخطئاً في هذا الشك هو موقع هذا النعي من نفوس الكثرة من

المتقنين الذين ألفوا اليسر في هذه الأيام وكرهوا كل ما يكلفهم مشقة أو يعرضهم
لشيء من العسر .

والأحداث تجري في هذه الأيام كثيرة مختلفة متباينة ، يتبع بعضها بعضاً في
سرعة سريعة ، والناس يقرأون أنباءها مسرعين ويتأثرون بها مسرعين أيضاً ، حتى
أصبح بعضها وكأنه ينسخ بعضاً ، وحتى أصبحت القلوب والعقول والضماير وكأنها
الصخور الملس تنزلق عنها الأحداث الخفاف والثقال والخطوب النحاف والغلاظ
دون أن تترك فيها أثراً .

ومع ذلك فقد كان نعي أحمد أمين خطباً مزيجاً مفرغاً مهروعاً بأوسع وأدق
ما تحتل هذه الكلمات من المعاني ؛ وأنا أعلم كما يعلم غيري من الناس أن الموت
حق ، وأنه ورد مورود لا يستطيع أحد أن ينصرف عنه ولا تستطيع أحداث الدنيا
أن تنصرف عنه أحداً

وأعلم كذلك أن المنايا خبط عشواء كما كان زهير يقول في بيته المعروف ، وأعلم
أنها إذا نشبت أظفارها لم تنفع التمام ولا الرقي ، كما كان أبو ذؤيب يقول في بيته
المعروف أيضاً .

أعلم هذا كله كما يعلمه الناس جميعاً ، وأعلم كذلك أن إيماننا بهذا كله
لم يستطع ولن يستطيع أن ينود عنا الحزن والأسى ، أو يصرف عن قلوبنا اللوعة
والحرقة والحسرات حين نفجع في عزيز علينا أو أثير عندنا .

فالقلوب تأسى والعيون تدمع والنفوس تفرقها اللوعة ، والإيمان بالقضاء مع
ذلك موفور ، والإذعان لأمر الله مستقر .

وإنما الشيء الذي قد لا يحتمقه كثير من الناس هو أن المحنة في أحمد أمين
ليست مقصورة على أسرته وبنيه وأصدقائه الأذنين ، وإنما هي محنة تتجاوز هؤلاء
جميعاً إلى وطنه كله .

بل أقول غير غال ولا متكلف أنها تتجاوز هذا الوطن المصرى إلى العالم العربى والإسلامى كله .

وأقول كذلك غير غال ولا متكلف أنها تتجاوز هذا العالم العربى الإسلامى إلى البيئات الأجنبية التى تعنى بالدراسات العربية والإسلامية فى أوربا وأمريكا . فلم يكن أحمد أمين فرداً من الأفراد النابهين فى مصر فحسب ، وإنما كان أحمد أمين مجداً مؤثلاً لوطنه ، وكان عالماً مؤثراً أعمق التأثير وأبعده فى حياة هذا الوطن ؛ وفى البيئات التى تعنى بالدراسات العربية الإسلامية فى جميع أقطار الأرض .
وحياة أحمد أمين قصة من أعظم القصص الحية روعة وأعمها تأثيراً ومن أعظمها حظاً من البراعة

وانظر إلى هذا الصبي الذى نشأ فى أسرة متواضعة من الأسر المصرية وفى حى متواضع من أحياء القاهرة ؛ وينشأ نشأة كأشد ما يكون تنشئ الشباب تواضعاً فيدرس فى المدرسة المدنية ثم يتحول عنها إلى الأزهر ثم يتحول إلى مدرسة القضاء ثم يصبح قاضياً تتقازفه المحاكم الشرعية فى أرجاء مصر ثم يعود مدرساً فى مدرسة القضاء ثم يرد بعد ذلك إلى القضاء الشرعى ؛ وهو فى أثناء هذا كله قلق لا يعرف اطمئناناً ولا استقراراً ، لأنه يجهل نفسه ويحاول أن يعرفها فلا تنهياً له هذه المعرفة كما يريد ، هو يلتمس نفسه فى كتب الفقه وفى علوم الدين كلها فلا يجدها ، ويلتمس نفسه فى الأدب العربى وفى اللغة العربية فلا يجدها ؛ ويلتمس نفسه فيما كان عاطف بركات رحمه الله يلقى على طلابه فى مدرسة القضاء من دروس الأخلاق وفلسفتها على نحو ما كان الإنجليز يدرسون الأخلاق وفلسفونها ، فلا يجدها ؛ ثم هو يلتمس نفسه فى حياته فلا يجدها فى القضاء الشرعى ولا يجدها فى ذلك التعليم المحدود ، ذى الآفاق الضيقة الذى كان يلقى فى مدرسة القضاء . هو يبحث عن نفسه ، ويعلم أنها قريبة منه يوشك أن يلمسها أن يمد إليها يده ؛

ولكنه يمد إليها يده مرّة ومرّة فلا يجدها ولا يلمسها إنما يحس أنها بعيدة عنه
أشد البعد .

وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التي أضل فيها نفسه فيتصل ببيئات
المطربشين وينشئ معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ويأخذ في تعلم اللغة الإنجليزية ويخيل إليه أن الأمد بينه وبين نفسه قد أصبح
قريباً ، ولكنه على ذلك يلمسها فلا يظفر بها .

وألقاه في يوم من أيام حيرته تلك ، وقد زارني حين أخذ المساء يدنو ويدنو
معه هذا الحزن الذي تعرفه النفوس الحية في الأصيل .

ولا أكاد أتحدث اليوم حتى أحس منه حزناً كهذا الحزن الذي كنت
أحسه من ذلك الأصيل الذي كان يظلنا في مجلسنا ذاك في شارع رمسيس
بمصر الجديدة .

وإذا هو ضيق بعمله في القضاء أشد الضيق . وإذا هو طامح إلى شيء مجهول
لا يحقّقه ولكن طموحه إليه شديد .

كل ما يعنيه هو أن يخرج من حياته تلك التي لا يستطيع عليها صبراً .
ونفترق في ذلك اليوم وقد أزمعت في نفسي أمراً ، فإذا كان الغد تحدثت
بما في نفسي إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد ، فإذا كان المساء دعوت أحمد
إلى لقائي ، وعرضت عليه التعليم في الجامعة فيشك غير طويل ثم يستجيب .

ولا يكاد يستقر في كلية الآداب شهراً و بعض شهر حتى يجد نفسه تلك التي
طال البحث عنها وشق بالتماسها أعواما طوالا .

وانظر إلى آثاره العلمية التي دفعته الجامعة إلى إنشائها فسترى نفس أحمد
أمين واضحة كأقوى ما يكون الوجود ، وسترى شخصيته ماثلة قوية تفرض
نفسها فرضاً .

كانت نفسه إذن ضائعة منه في كلية الآداب ، ولم يكن له بد من أن يلتصقها في هذه الكلية شأنه في ذلك كشأن ذلك البطل الذي عرفناه أيام الصبي في أحاديث العجائز ، ذلك الذي كان يكلف من الغايات فيذهب في التماسها كل مذهب ويركب في طلابها كل مركب ، ويتعرض للأخطار الجسام ، والأهوال العظام ويتمتحن بلقاء الغول بعد الغول ثم يظفر آخر الأمر بما كان ويصبح رجلاً سعيداً كأحسن ما تكون السعادة موفور الحظ من نعمة العين ورضاء البال .

وقد وصل أحمد أمين إلى غايته ووجد نفسه في الحياة العقلية الإسلامية فألف فيها فخر الإسلام وضحى الإسلام وأهدى بهذه الكتب إلى العالم الحديث بتاريخ العقل الإسلامي كنزاً من أقوم الكنوز وأعظمها حظاً من الغنى وأقدرها على البقاء ومطاوله الزمان والأصراح .

فلأول مرة في التاريخ الإسلامي عرض تطور الحياة العقلية للمسلمين في القرون الثلاثة الأولى عرضاً دقيقاً صحيحاً صادقاً ملائماً للعقل الحديث . وكذلك استطاع ذلك الشيخ القديم الذي لم يجد نفسه في الأزهر ولا في مدرسة القضاء ولا في الأعمال المختلفة التي تقلب فيها والذي كان شيخاً ضائعاً بين شيوخ ضائعين أن يفرض نفسه على الحياة العلمية فرضاً وأن يظفر بإعجاب المواطنين والأجانب من العلماء ، وأن يصبح ثقة في تاريخ الثقافة الإسلامية ، لا بالقياس إلى تلاميذه وزملائه في مصر والعالم العربي ، بل بالقياس إلى كل من يعنون بهذا النحو من أنحاء العلم في أقطار الأرض كلها .

ومصدر هذا أن ذلك الشيخ الذي كان ضائعاً لم يكن كغيره من الشيوخ الضائعين . وإنما كانت في نفسه جذوة خفية قد تكاثرت عليها الرماد حتى أخفاها حتى على تلك النفس التي كانت تحملها وتمترق بها .

ولم يكن بد من أن يصل الجامعة ليزول الرماد المتكاثف ، وإذا هي تبدو ساطعة لامعة تملأ الأرض من حولها نوراً وهاجاً يستضيء به الطلاب فيستزيدون من العلم ويستحبون هذه الاستزادة ويستضيء به زملاء فيستعينون بهذا الضوء على أن يبحثوا ويجدوا وينتجوا ، ويستضيء به المستشرقون الأجانب فيصنعون صنيع الزملاء من المواطنين .

لن يجحد فضل أحمد أمين على هذا اللون من ألوان الثقافة الإسلامية إلا جاهل لا يعبأ الله به ، ولا يآبه الناس له ، أو جاحد لا خير فيه لنفسه ولا للناس .

ومهما يكن رأى الناس في أحمد أمين فلن يشك في فضله على الثقافة الإسلامية إلا الذين لا خلاق لهم من الجاهلين والجاحدين .

ومع كل هذا فلم يرض أحمد أمين عن نفسه لأنه لم يجدها كاملة كما كان يجب أن يجدها .

كان يريد أن يعرف كل شيء وأن ينتج في كل شيء وأن يسبق كل شيء كما أساغ تاريخ الثقافة الإسلامية .

ولكن الإنسان الذي يستطيع أن يعرف كل شيء ، وينتج في كل شيء ، لم يوجد بعد ، وما أرى أنه سيوجد آخر الدهر .

ومع ذلك فقد حاول أمين محاولات لا تحصى ، فهو ينفرد بالإنتاج مرة في هذا اللون من ألوان المعرفة ، ويشارك مرة أخرى هذا الزميل أو ذلك من زملائه وهذا الطالب أو ذلك من طلابه فيبلغ بهذا كله ما يستطيع لا ما يريد ولا ما يريد له المخلصون من الصديق : ولكنه كأى كادح دائماً لا يستريح ولا يريح ؛ تراه مؤلفاً للكتب وكاتباً في الصحف ، ومشرفاً على نشر الأدب القديم ومشاركاً في هذا النشر ، ومدبراً لكل ما وكل إليه من أمر في كلية الآداب ، أو في جامعة

الأمم العربية ، أو في لجنة التأليف والترجمة والنشر ، أو في إدارة الثقافة العامة ،
أو فيما شاء الله من الأعمال المختلفة التي شارك فيها والتي لا تكاد تحصى .

كانت نفسه أشبه شيء بالنصل الذي يبلى غمده ، وبالجزوة التي تحرق
جسمها . وقد أبلى غمده وأحرق جسمه ، ولم يقتنع مع ذلك بأن غمده قد أدركه
البلى ولا بأن قد جعلته تلك الجزوة الداخلية رمادا . فكان يكلف هذا الجسم
البأس على مرضه وأدوائه ما لا تتكلفه أجسام الأحياء .

وقد فارق الدنيا رحمه الله وهو يتكلف الإنتاج والعمل الخصب . وقضى وإن
له لكتباً منها ما يطبع ومنها ما يهيباً للطبع .

فإذا لم يكن أحمد أمين مثلاً رائعاً للجد المنتج والنشاط الخصب والمثابرة التي
لا تعرف كلا ولا مللاً والمقاومة التي لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً والثقة التي لا تعرف
شكاً ولا تردداً فلا ينبغي للمصريين أن ينتظروا مثلاً رائعاً من أى مواطن آخر .
أما أنا فأؤمن بأن أحمد أمين قد كان صورة رائعة صادقة لوطنه هذا الخالد .

وهل مصر إلا جزوة حية قوية تكاثف عليها الرماد حتى جهلت نفسها وهي
تحاول الآن أن تزيل عن نفسها هذا الرماد بجهد المؤمنين الصادقين من أبنائها ،
من أمثال أحمد أمين .

فما أجدر المصريين أن ينشدوا إذا ذكر لهم موت أحمد أمين قول ذلك
الشاعر القديم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ماشاء أن يترحمها
وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما
وأنا أرجو مع ذلك أن يكون لمصر في المؤمنين الصادقين من أبنائها شيء
من العزاء .

وأنا واثق آخر الأمر بأن من ألف فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام
أبقى على الأيام من أن يدركه الموت .



أحمد أمين بمكتبه بالإدارة الثقافية بالجامعة العربية



[Faint, illegible handwritten text]

أحمد أمين... المجاهد

بقلم الدكتور

عبد الرزاق أحمد الزهورى

قد كنتُ أؤثر أن تقول رثأى يا منصف الموتى من الأحياء
كنتُ أخشى هذا اليوم - يوم أرتيه - بعد أن رأيتُ المرض قد ألح
عليه ، وتغلغل فى جسمه ، ولم يُبق منه إلا عقلا يقظا ، وإلا قلبا ينبض بحب
العمل . فكنتُ أقول فى نفسى : أتكونُ منيته أقرب من منيتى ؟ وهل تراه
يودع الدنيا قبل أن أودعها ؟ وهل ترانى أنا الذى أرتيه لا هو الذى يرثينى ؟ ثم
أنتهى إلى قول الشاعر العربى :

لعبرى وما أدرى وأنى لأوجل على أينما تعدو المنية أول
لقد عدت عليه المنية أولا ، ويا للفجعة فيه . وكلنا لا حقون به . وما الحياة
إلا طريق الموت . من يولد يعيش ، ومن يعيش يموت ، وهذه هى كل قصة الحياة .
فما أفسى حظ الإنسان فى هذه الدنيا .

يدور كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه
ولكن بين الميلاد والموت يعيش الإنسان وقتا يطول أو يقصر . وهذا هو
الوقت الذى يسجل فيه الحضارة البشرية على هذه الأرض . ويتعاون الناس جميعا
فى تسجيل هذه الحضارة . فمنهم من يكون نصيبه تافها أو معدوما ، ومنهم من
يكون نصيبه كبيرا موفورا . وفتقيدنا أحمد أمين من الناس الذين كان نصيبهم
فى تسجيل الحضارة كبيرا موفورا .

لم يعيش لنفسه بقدر ما عاش للناس . فرض على نفسه الجهاد فى الحياة . بل

لعل الجهاد هو الذى فرض نفسه عليه ، فلم يكن يستطيع منه خلاصا . عاش مجاهدا ، ومات مجاهدا ، ولم يختره الله لرضوانه إلا بعد أن أبقى اسمه على كل لسان وفى كل قلب ، رمزا للعلم الواسع ، وللعقل الكبير ، وللخلق العظيم . خدم العلم فأحسن خدمته ، وجاهد فى سبيل الحق فأعلى كلمته ، وكان فى هذا البلد رجالا حين تعز الرجال — جاهد جهادا طويلا عنيفا موقفا ، وأن له اليوم أن يلقى سلاحه وأن يرتاح ، بعد أن أصبح مثلا يقتدى به فى العمل والصبر والجهاد .

* * *

رأيت أحمد أمين أول مرة فى مدرسة القضاء الشرعى . كان ذلك فى سنة ١٩٢٠ . وكنتُ قبل ذلك وكيفا بالنيابة العامة ، فتركت وظيفتى هذه إلى وظيفة بمدرسة القضاء الشرعى لتدريس القانون ، فقد كنت شغوفًا بالفقه القانونى ، ولم يكن لى إليه إلا هذا السبيل . وأشهد أنه كان سييلا رحبا كريم الوفادة ، وقد استقبلنى منذ بدايتى فيه الأستاذ عاطف بركات ، ناظر المدرسة ، استقبالا ينطوى على كثير من العطف والود . ثم عرفتُ فى المدرسة كثيرا من أساتذتها ، وأولهم أحمد أمين .

كان إذ ذاك شابا معما ، يبدو على وجهه من إمارات الجد والرزانة ما يجعل مظهره يزيد على سنه ، لولا دعاية عرفت عنه ، وفكاهات ظريفة يتحدث بها إلى سامعيه من وقت إلى آخر ، فكانوا يضحكون لها ويكون هو أول الضاحكين . ولعل هذا القليل من المرح هو الذى كان يلطف من حدة الجد فى حياته ، وكان إخوانه وزملاؤه من أجل ذلك يستلطفون عشرته ، ويستطيبون صحبته .

ولم تلبث صلتى به أن توثقت . فقد راقنى منه — إلى جانب هذا المرح — نظرة عميقة إلى الحياة ، ونفس صافية لا زغل فيها ولا كدر . وانقلبت هذه الصلة الوثيقة إلى صداقة متينة فى خلال شهور قليلة ، فقد أقبل كل منا على صاحبه ،

واغتبطتُ جد الاغتراب بهذه الصداقة الجديدة ، فقد كنتُ بطبعي آتوخي الدقة في اختيار أصدقائي ، وأميز بين الصديق والزميل ، فلا أدخل في نطاق الصداقة إلا عدداً محدوداً ممن أستصفي ودمهم .

ولفت نظري في صديقي الجديد أن وجدتهُ يجمع بين العقل والقلب . له عقل كبير يستوعب الدقيق من الأمر ، ويحيط به إحاطة شاملة لا يقف فيها عند التفصيلات ، بل يستخلص منها القواعد والأسس ، وهو في هذا يختلف اختلافاً واضحاً عن كثير من زملائه ممن تتقفوا مثل ثقافته . وله قلب رقيق ، ينبض رحمة ويفيض حناناً ، يحس آلام الأشقياء فتتقلب آلاماً لنفسه ، ويحقق لكل معنى كريم نبيل . وقليل من الناس من يجمع بين العقل والقلب . فكثير من العقول الكبيرة خاوية إلا من التفكير المجرد الفاتر الذي لا لون له ، وكثير من القلوب الرقيقة لا تعرف إلا التوجع المضمئ وإلا العاطفة المائعة . بل إن اجتماع العقل والقلب هو الذي يخلق الرجل المجاهد . فالعقل يدل صاحبه على المبدأ السليم والعقيدة الحقّة . والقلب يغرّس في نفسه هذه العقيدة غرساً قويا لا يمكن معه اقتلاعها . على أن صديقي الجديد لم يجتمع فيه العقل والقلب فحسب . بل رأيت فيه إلى جانب ذلك كثيراً من الترفع والإباء ، فهو لا يقبل المهانة ، ويأبى الظلم والضميم . وقد يما قال الشاعر العربي :

متى تجمع القلبَ الذكي وصارماً وأنفًا حَمِيماً تجتنبك المظالم

وكان صديقي يجمع العقل القوى ، والقلب الذكي ، والأنف الحمى . ولكن لم يكن في يده صارم ، بل كان في يده قلم . فلم تجتنبه المظالم ... ذلك أن الحضارة البشرية لم تصل بعدُ إلى مرحلة من الرقي تعدل فيها بين الصارم والقلم . على أن صديقي إذا فاتته أن تجتنبه المظالم ، لم يفته أن يكون مجاهداً ، وهذه عناصر الجهاد كلها قد اجتمعت له . وأشهد أن صديقي عاش حياته كلها مجاهداً : جاهد في

سبيل المبدأ ، وجاهد في سبيل الوطن ، وجاهد في سبيل العلم .

* * *

جاهد في سبيل المبدأ

كان أحمد أمين رجلاً ذا مبدأ لا يحمده عنه . ومن يكن له في الحياة مثل أعلى لا يقبل الدنية ، ولا يعرف التقلب ، ويدرك معنى الوفاء ، ويمجد اللذة في الجهاد . هذه الصفات مجتمعة لم ألبث أن رأيتها قد تجلت فيه قبل أن تنتصف السنة الوحيدة التي قضيتها في مدرسة القضاء الشرعي . وأسوق قصة من قصص جهاده في سبيل المبدأ والوفاء .

كانت مصر ، في أوائل سنة ١٩٢١ ، وفدية خالصة . وكان توفيق نسيم رئيساً للوزارة ينفذ سياسة القصر . فعزل عاطف بركات ناظر مدرسة القضاء الشرعي من منصبه إذ حسبه ، وحسب معه مدرسة القضاء الشرعي ، بؤرة تعشش فيها الوطنية ، هذه الوطنية التي لم يتلوث توفيق نسيم بأوساخها فيما روى عنه . فقامت مدرسة القضاء الشرعي ، أساتذة وطلبة ، يحتجون على هذا التعسف . ثم زادت المسألة تعقداً أن انقسم البلد إلى فريقين : أغلبية مع سعد وأقلية مع عدلي ، وذلك بعد سقوط وزارة توفيق نسيم . فتعذر إرجاع عاطف بركات إلى مدرسة القضاء ، إذ كان عدلي على رأس الوزارة ، وكان عاطف في الأغلبية التي مع سعد .

فقامت حركة مدرسة القضاء الشرعي في قسوة عنيفة . وتناول القمع الطلبة والأساتذة جميعاً . وما لبثت حركة القمع أن آتت ثمارها . فهذا الطلبة ، وتفرق الأساتذة ، وانعزل كل في عمله ، وعين الحكومة ساهرة على الجميع . وانقسم الأساتذة إلى فريقين : فريق انصرف إلى عمله لا يتكلم إلا همسا ومن وراء حجاب ، وهذا هو الفريق الأكثر شجاعة والأقوى قلباً . وفريق آخر أخذ جانب الحكومة ، وتذكر لعاطف بركات ، وانقلب حرباً عليه وعلى شيعته .

فما راعى في وسط هذه الظامة الظالماء ، والأعاصير العاصفة إلا أحمد أمين ،
يزعن جميع الأساتذة ، ووقف ثابتا في مكانه ، مواليا لأستاذه عاطف ، مجاهداً
في سبيل وفائه وإخلاصه لمبدئه . ويعلم الله ماذا حمل من أجل ذلك من عنق
وإرهاق واضطهاد ، وهو لا يتحول ولا يتزعزع . ووقف إلى جانبه من الأساتذة
اثنان أو ثلاثة ، أذكر منهم رجلا قوى الإيمان نبيل الخلق ، هو المرحوم الأستاذ
عبد الوهاب خير الدين ، ولا أنسى له هذا الموقف طول حياتي .

وأضينا بقية العام في هم ونكد . وبقي أحمد أمين على جهاده ، لا تخور
عزيمته ، ولا تهن قوته ، يحتسب في سبيل الله وفي سبيل الجهاد والمبدأ ما يلاقى
من ضغط ، وما يحيط به من عنف وقسوة . حتى إذا انقضى العام ، قيص الله لي
الخلاص ، فأرسلت في بعثة للقانون إلى فرنسا . أما أحمد أمين ، فقد اقتلعتة
أعاصير الظلم من مدرسة القضاء التي نشأ فيها طالبا وعاش أستاذا ، وقذفت به إلى
وظيفة قاض شرعى في بلد ريفي !

* * *

وجاهد في سبيل الوطن

دارت الأعوام ، وقضيت منها خمسة في فرنسا ، قضيت بقضائها بعثتي في
القانون . ورجعت إلى مصر ، لأجد صديقي أحمد أمين لا يزال في مكانه قاضيا
شرعيا ، حيث كانت أعاصير السياسة قد قذفت به جزاء جهاده في سبيل الحق
والمبدأ ، وفي سبيل الكرامة والوفاء .

فعبجت أشد العجب . بل كان عجبى عجيبين :

عجبت أولا من أن صديقي أحمد أمين إنما كان قد أقصى عن مدرسة القضاء
الشرعى من أجل مبدئه ومن أجل وفائه لأستاذه عاطف بركات . وكنت أعلم

إلى جانب ذلك أنه كان معروفاً بحبه للوفد مشعباً بمبادئه ، أثيراً عند زعيمه سعد زغلول . وأنه أدى كثيراً من الخدمات إلى الوفد وزعيمه ، بل إن الزعيم كان يستشير برأيه عن الحالة في مصر ، وعمّا عسى أن يكون استقبال الزعيم فيها إذا قدم إليها من فرنسا بعد الانتهاء من مفاوضة لجنة ملنر . كنتُ أعلم كل ذلك ، وأعلم كثيراً مثله ، مما يجعل أحمد أمين في مقدمة الطبقة المثقفة الوفدية ، المخلصة لمبداها ، المتفانية في جهادها من أجل الوطن . وهذه الأعوام الخمسة التي مرت قد سجلت أحداثاً جساماً . فهذا الأستاذ عاطف بركات قد رجع ، ولكن لا إلى مدرسة القضاء الشرعي ، بل إلى وكالة وزارة المعارف ، وهي وظيفة تعد أجل شأنًا وأكبر خطراً من وظيفة ناظر مدرسة القضاء الشرعي . وهذا الوفد قد ولى الحكم مرتين ، فراحت وجوه قديمة ، وجاءت وجوه جديدة ، وولى الوظائف كبيرها وصغيرها من عرف بالوفدية ممن كانوا موظفين أو من غيرهم . ولما رجعتُ إلى مصر ، وجدت على رأس الوزارة عدلى يكن ، وعلى رأس مجلس النواب سعد زغلول . أما صديقي أحمد أمين ، فكان لا بد من البحث عنه طويلاً ، حتى إذا ما عثرتُ عليه ، وجدته مغموراً في ركن مهجور من وظائف القضاة الشرعيين ، حيث كان منذ خمسة من الأعوام . لقد رجع أستاذه وصديقه الحميم عاطف بركات إلى مناصب الحكومة الكبرى ، وولى وكالة وزارة المعارف ، وكان يستطيع في القليل أن يعوض على الرجل بعض ما عانى في سبيل وفائه له وفي سبيل الجهاد عن المبدأ والكرامة ، ولكنه لم يفعل شيئاً ! ولى الوفد الحكم مرتين ، وفي كل مرة كان يستطيع أن يجزى أحمد أمين خير الجزاء ، إن لم يكن من أجل إخلاصه لوطنه ، وجهاده في سبيله ، وصبره على المكاره والتضحية ، فعلى الأقل من أجل وفديته المخلصة من الدغل ، البريئة عن المصانعة والمداجاة . ولكن الوفد لم يفعل شيئاً ! عجبت أشد العجب لذلك . وكنتُ وقتئذ من أشد المصريين إخلاصاً لمبادئ الوفد ، ومن أعمقهم إيماناً

برسالته . فلم ينل ذلك من إخلاصى للوفد ، ولكنه أشاع فى نفسى قلقا غامضا
وحيرة مكتومة . ثم ما لبث عجبى هذا الأول أن زال بعجب أشد منه .

عجبت ثانياً من صديقى أحمد أمين نفسه . قابلنى بعد عودتى من فرنسا متهللاً
باشاً ، يحدثنى عما تعاقب على مصر من أحداث فى غيبتى ، وعما خطت مصر فى
جهادها المقدس من مراحل ، وهو مبتهج راض بما تم ، أمل المزيد فى المستقبل ،
و كأنه يروى تاريخاً مجرداً ليس له شأن فيه ، ولا لشخصه دخل فى حوادثه . لم يذكر
لى إلا لما — وهو يستطرد — ما جاهد وما قاسى فى سبيل إخلاصه لوطنه ،
ولا يتحدث عن ذلك إلا إذا اضطر إليه اضطراراً لصله ضرورة تصل بين حادثين
أو تعلق أمراً لا بد من تعليقه . فتفرست فى أعماق نفسه ، فوجدته مطمئناً هادئاً
لا يتكلف ولا يتصنع . ليس فى نفسه مرارة ، ولا ترسم على وجهه أمارات الأمل
الضائع ، بل هو قانع بنصيبه كل القناعة ، مغتبط لما يحسب أن مصر قد اجتازته
من عقبات وقطعت من مراحل فى سبيل استكمال استقلالها .

لقد كان عجبى الثانى هذا شديداً عميقاً نسيت معه عجبى الأول . فلم أعد
أفكر فى تصرفات الوفد ، ولم يعد يعينى ما إذا كان صديقى قد جوزى على جهاده
وتضحيته . وإنما عنانى أشد ما عنانى أن أحلل فى صديقى هذه النفس الراضية
المرضية التى قال الله تعالى فى وصفها : « يأتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك
راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى » .

وسألت صديقى — وأنا فى سبيل تحليل نفسه — عما إذا كان لم يشعر من
الوفد بشيء من الجحود أن تركه منزوياً فى وظيفة قاض شرعى ، دون أن يعيده
على الأقل إلى وظيفته الأولى التى اقتلع منها وهو يجاهد فى سبيل الحق ، والمبدأ ،
والكرامة ؟ فأجابنى فى غير تردد أنه لا يرى رأى ، وأنه يعتقد أنه لو أراد أية
وظيفة وطلبها من الوفد لم يكن ليبخل عليه بها ، ولكنه لم يطلب شيئاً ، وما كان

ليطلب شيئاً ، لأنه إنما فعل ما فعل ، لا ابتغاء وظيفه أو جاه أو مال ، ولكن إخلاصاً للمبدأ ، وجهاداً في سبيل الحق ، وأنه لينتقص من جهاده أن يسأل الجزاء عليه . وبجسبه أنه أدى بعض الخدمات لوطنه ، وإنه لقرير العين بما أدى ، ولا يريد على ذلك جزاء ولا شكورا .

تأثرت أعمق التأثر من هذه الإجابة . ورجعت إلى ما كنت قبل سفري أحلل به صديقي ، وأعلم أنه يمتاز به عن غيره : هذا العقل القوى ، وهذا القلب الذكي ، وهذا الأنف الحمى . هذه العناصر الثلاثة التي تأتلف لتخلق الرجل المجاهد . لقد كان رجلاً مجاهداً حقاً في سبيل مبدئه ، وفي سبيل وطنه ، وجهاده جهاد صامت لا يمنح إلى الضجة ، ولا يميل إلى الدعاية ، ولا ينتظر المكافأة ، ولا يتطلع إلى الجزاء .

لم أكن أعلم إذ ذاك — وكنت وفدياً مؤمناً أعمق الإيمان بوفديتي — أن صديقي ليس من الطراز الذي تنفق سوقه في ميادين الدعاية ، ولا من الرجال الذين تلتهم لهم أكف الجماهير بالتصفيق . لقد كان صديقي رجلاً مجاهداً ذا مبدأ لا يتقلب فيه . وهذه صفة تبعده عن الجماهير ، ولا تدنيه من رجال النفوذ والحكم فالجماهير لا تحب إلا الضوضاء والضجيج ، ولا يبهر نظرها إلا اللعان والبريق . ورجال النفوذ والحكم يحبون للفق ، فيجوز عليهم الرياء والنفاق ، ثم هم أيضاً قد وصلوا إلى مناصب الحكم بالضوضاء والضجيج ، فيؤثرون أن يستبقوا بضوضائهم وضجيجهم مناصب الحكم التي وصلوا إليها . وصاحبى لا يحب الضوضاء والضجيج ، ويكره الرياء والنفاق ، ويمقت التلون والتقلب . فمن أين له السبيل إلى رجال النفوذ والحكم ، ودون ذلك بحر مرغ مزبد من الضوضاء والضجيج ، حول رجراج من التلون والتقلب ، كدر رنق من الرياء والنفاق !

لم يكن لصديقي إذن إلا أن يقنع بمكانه الذى هو فيه . ولا أحسب أن مرد

قناعته كان إلى المعاني التي ذكرتها ، بل كان مردها إلى هذه النفس الطاهرة
الزكية ، التي خلقت مجاهدة دون أن تنتظر على الجهاد أجراً .

* * *

جاهد في سبيل العلم

على أن صديقي لم يلبث أن أحس ضيق الأفق الذي يتنفس فيه . لقد كان
يدرك من وقت طويل أنه لم يخلق ليكون قاضياً شرعياً ، ينظر في قضايا الزواج
والطلاق والنفقة والمواريث ، وإن كان قد استوعب ما لهذه الأفضية من نواح
اجتماعية استيعاباً عميقاً هو الذي استبقاه في وظيفته طول هذه المدة . لقد كان يحب
العلم منذ دخل مدرسة القضاء الشرعي طالباً ، وتخرج فيها أستاذاً . وكان يعمل
الليل والنهار على تنقيف نفسه بنفسه . لقد وجد أمامه خزان الفكر الإسلامي
مكدسة تعبي من يحاول الإحاطة بها . فهجم على هذه الخزائن ، مستعيناً في ذلك
بوسيلتين . ثقافة إسلامية عريقة تأصلت في نفسه منذ الصغر ، وعقل نافذ مرتب
يعوص في الأعماق فلا يسלט أضواءه على الفكرة حتى يستخلص لبابها ويطرح
عنها القشور التي تستر منها الجوهر . وأدرك قبل فوات الأوان ألا بد له من تحصيل
لغة أجنبية يطل منها على الحضارة العالمية التي يعيش فيها ، حتى يدرك الصلة بين
القديم والحديث . فما لبث أن تعلم اللغة الإنجليزية ، بحيث استطاع من طريقها
أن يلم بما وصلت إليه حضارة الغرب ، وبخاصة ما وصل إليه المستشرقون في
دراساتهم للفكر الإسلامي .

بينما هو يعد نفسه للرسالة التي كتب الله له أن يؤديها في هذه الحياة ، أحسست
منه قلقاً يشوبه شيء من الضجر . وعلمت منه أنه يتطلع إلى وظيفة هي الغاية في
أمانيه . لم تكن هذه الوظيفة — كما قد يخال كثير من الناس — منصباً كبيراً
من مناصب الدولة ، مما وصل إليه من هم دونه علماً وخلقاً وصلة بذوى النفوذ

والحكم ، بل هي لم تكن إلا وظيفة مدرس للشرعة الإسلامية في كلية الحقوق .
هي وظيفة صغيرة دون شك من حيث المال والجاه والنفوذ ، ولكنها كبيرة من
حيث ما تهيبه له من جو علمي خالص يستطيع فيه أن يخدم الفقه الإسلامي الخدمة
التي طال انتظاره لها . وكنت دائماً أومن أعمق الإيمان أن هذا الفقه الإسلامي
في حاجة ملحة إلى عقل قوى يعيد له سيرته الأولى ، وينتشله مما أحاط به من
الجمود ، ويساير به الزمن ، بعد أن ينفذ عنه ما تراكم عليه من غبار الدهور
المتعاقبة . ولم أكن أشك في أن الفقه الإسلامي سيجد في صديقي هذا العقل القوى
الذي يقبل عثرته ، ويحدد نهضته . فاغتبطت جد الاغتباط إذ أنست من صديقي
هذا الليل . وحسبت أن الأمر ميسر . فقد كنت إذا ذلك منحرفاً في سلك هيئة
التدريس بكلية الحقوق أقوم بتدريس القانون المدني . بل كان أمامنا سبب يهيب
سبيل النجاح أهم من ذلك بكثير . فقد كان عميد الكلية في ذلك الوقت هو
المغفور له أحمد أمين ، سمي صديقي ، وصديقه الحميم . فقد كانت هناك صلة صداقة
متينة توثقت بينهما منذ كان العميد أحمد أمين أستاذاً للقانون في مدرسة القضاء
الشرعي ، وهي الوظيفة التي توليتها فيما بعد على ما قدمت ، والتي عرفت صديقي
عن طريقها ، كما عرفه العميد أحمد أمين . ولكن بالرغم من كل هذه الظروف
المواتية التي كان من شأنها أن تنيل صديقي الكبير هذه الوظيفة الصغيرة بكلية
الحقوق ، لم يتمكن ، ويعاونه صديقان من أخلص أصدقائه أحدهما عميد الكلية
نفسه ، من أن يحقق أمنيته .

رب ضارة نافعة . لقد كنت أحسب إذ ذلك أن ما أخطأ صديقي من التوفيق
خسارة كبيرة على العلم . ولم أكن أدرك عندئذ أنه ليس إلا خسارة على الفقه
الإسلامي وحده . أما على العلم بمعناه الواسع ، وعلى الفكر الإسلامي في عمومته
وشموله ، فليست هناك أية خسارة ، بل هناك كسب محقق . ذلك أن زميلاً آخر
كان يهيبه لصديقي مكانه في كلية الآداب ، ذلك المكان الذي دخل إليه ، ولم

يفادره طول حياته . لقد كانت الأقدار أبعد نظراً وأنفذ بصيرة . أراد لنفسه دائرة محدودة ، وأراد الله له دائرة أوسع . بل إنى لأنساءل الآن أليس هذا العمل الفكري الجليل الذي تولاه صديقي في كلية الآداب أقرب إلى مزاجه العلمي ، وأدنى إلى ثقافته المكسوبة من الفقه الإسلامي في كلية الحقوق ؟

ومهما يكن من أمر ، فإن صديقي لم يدخل مدرساً للشريعة الإسلامية في كلية الحقوق ، ولكنه دخل مدرساً للأدب العربي في كلية الآداب ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى في حياته الجديدة .

وهذه الحياة الجديدة كترس نفسه فيها للعلم ، وللعلم وحده . لقد عافت نفسه السياسة وما يملأ سطحها من سعايات ودسائس ، وما يحيط بها من دنية وصغار ، وما تضطرب به من نفاق وملق . بل هو لم يعرف هذا اللون من السياسة قط ، ولم يك ليصلح له لو أنه عرفه . لقد كان لا يفرق بين السياسة والوطنية ، فالسياسة عنده هي أن يخدم وطنه . ولذلك عمل في السياسة عندما كانت وطنيه خالصة تصهر القلوب ، وتنقى الضمائر والنفوس ، وأقبل عليها أشد ما يقبل ، لا ينتظر جزاء ولا مكافأة . فلما تطورت الأمور ، وانحرفت النفوس ، وأصبحت السياسة أن تنتمي إلى حزب لتتفت له أصاب أو أخطأ ، وتصفق لزعيمه هدى أو ضل ، لا بل أن تنتمي اليوم إلى حزب وقد ولى الحكم لتتركه غداً إلى حزب آخر وقد خلف في الحكم الحزب الأول ، لما أصبحت السياسة هي الوصولة والنفعية على هذا النحو ، كان لا بد لصاحبي أن يهجرها ، فلم تخلق له ولم يخلق لها . وانصرف إلى العلم كما تمليه عليه سجيته التي فطره الله عليها .

وإنى لأنساءل هنا ، مرة أخرى ، لو كانت السياسة وطأت أكنافها ورحبت مسالكها لصاحبي ، لو كانت هذه السياسة بقيت وطنية خالصة كما كانت ، وبقي صاحبي خائضاً غمارها ، فأية خسارة فادحة إذن كان يخسرها العلم والفكر الإسلامي

وقد عجزا عن أن يجذبا إلى جانبهما ونجحت السياسة في أن تصرفه عنهما ! إن الله لأكرم على العلم والإسلام من أن يقدر ذلك ، فحمداله وشكرا .

انصرف إذن صاحبي في كلية الآداب إلى العلم يجاهد في سبيله . ومنذ رفعت يده راية العلم لم تهبط بها ، ومنذ اشتعلت في صدره جذوة المعرفة لم تنطفئ هذه الجذوة . وقد خدم بالعلم مصر وطنه الأصغر ، والإسلام وطنه الأكبر .

وأما ما اختاره لجهاده العلمي فقد حدثني أنه وزميلين وضعوا الخطوط الرئيسية لمشروع ضخم كبير . يؤرخ أحدهم للإسلام حياته الأدبية ، ويؤرخ الثاني للإسلام حياته السياسية ويؤرخ صديقي للإسلام حياته العقلية .

فاضطلع صديقي بنصيبه من هذا المشروع : سلسلة من الكتب هي من أقوم وأروع ما وضع عن الحياة العقلية والفكرية للإسلام منذ فجره إلى أن اشتد عوده واكتهل . فأسس صديقي مدرسة في الفكر الإسلامي لا أعرف أن معاصرا قام بعمل يدانيها . وستبقى هذه المدرسة راسخة الأصل باذخة الفروع ، تظل الجليل بعد الجليل وسيكثر تلاميذها ، وستتخذ هؤلاء التلاميذ من صديقي لمدرستهم أستاذا إماما وزعما فكريا كبيرا .

رحمه الله رحمة واسعة . لقد جاهد جهادا قويا عنيفا في سبيل المبدأ ، وفي سبيل الوطن ، وفي سبيل العلم . وقاسى في جهاده هذا القوى العنيف ألم الجسد وألم الجحود والنكران ، في دولة لا تزال مشغولة عن العلم وعن تكريم العلماء . وبقي يجاهد إلى آخر لحظة من حياته ، فسقط في الميدان صريعا ولم يسقط من يده القلم .

ذكريات عن أحمد أمين

بقلم الدكتور

عبد الوهاب عزام

هي ذكريات لا يؤلف بينها موضوع ، ولا يجمعها زمان ولا مكان ؛
ولكن تنظمها كلها الصحبة الطويلة ، والصلة الروحية ، بيني وبين الأستاذ
المفتقد أحمد أمين رحمه الله :

دخلت مدرسة القضاء الشرعي في السنة الأولى من القسم الأول والأستاذ
رحمة الله عليه في السنة الآخرة من القسم العالي . وكانت مدة الدراسة في القسمين
تسع سنوات ، وكان هو من الفريق الذي التحق بالقسم العالي مباشرة قبل أن يعدّ
القسم الأول الطلبة لذلك القسم .

ولا أزال أذكر صورته ، ولعلها أول صورة وعيتها ، وهو خارج من المدرسة
في نفر من أصحابه . قال أحد رفقائي : هذا أول المدرسة وجبته مزوقة ، وكان أحد
أصحاب الأستاذ مزح معه ذلك اليوم فجذبه فامتزق كفه .

وتخرج الأستاذ تلك السنة وتولى القضاء . ثم رجع إلى المدرسة مدرّسا .
ولا أتذكر متى كان هذا .

وحينا كنت من طلبة القسم العالي درس لنا الأستاذ علم الأخلاق أو فلسفة
الأخلاق . وكان تلقاه عن أستاذه محمد عاطف بركات ناظر المدرسة رحمه الله . ثم
تولى درس هذا العلم لنا الأستاذ محمد عاطف نفسه . وكان أحمد الأمين حريصا
على متابعة التلقي عن أستاذه فكان يوضع له كرسي فيستمع إلى درس الأخلاق

معنا . وكان موضوع الدرس حينئذ رسالة في مذهب المنفعة للفيلسوف الإنكليزي استوارت ميل .

وجاء في مقدمة هذه الرسالة كلام عن الأخلاق « منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم عن الشيخ فيثاغورس » فأولع الطلبة منذ قرءوا هذه الجملة أن يلقبوا أحمد الأمين « الشاب سقراط » .

ودرس لنا الأستاذ كذلك في إحدى السنين تاريخ الأندلس . ولم يكن أستاذ تاريخ ولكن محمد عاطف — وكان ينظر إلى كفاية المدرس ولا يتقيد بالقيود المألوفة في المدارس — عهد إليه بهذا الدرس . فأحسن البيان والتلخيص وكتب خلاصة شاعت في المدرسة إذ ذاك .



ثم أعيد أحمد الأمين إلى القضاء فاحتفلت المدرسة بتوذيعة . وكنت تخرجت فيها ولحقت بها مدرسا . فألقيت كلمة مجملّة ذكرت فيها طرفا مما عرفت من أحواله وسيرته وكانت ذكريات كالتى أكتبها اليوم ، وأذكر كذلك أنى حينما أنهيت دراسة هذه الكلية التى كانت تسمى مدرسة القضاء الشرعى ، واختارنى الناظر للتدريس فيها عهد إلى الأستاذ رحمه الله ليخبرنى بهذا الاختيار ويسألنى عن العلوم التى أرغب فى تدريسها ، فأبرق إلىّ وأنا فى قرىتي نجّمت إلى القاهرة ولقيته محدثنى فى هذا الشأن .



وتركت المدرسة بعد ثلاث سنين من تدريسي فيها ، وسافرت إلى لندن حتى أنشئت الجامعة : جامعة القاهرة ، وكانت نواتها كلية الآداب القديمة التى تخرجت فيها وأنا مدرس بمدرسة القضاء ، فنقلت من مفوضية لندن إلى الجامعة وبها أساتذتى وأصدقائى طه حسين وأحمد الأمين وعبد الحميد العبادى ، فتعاوننا فيها على وضع

السنن الصالحة للدراسة الجامعية ولا سيما دراسة اللغة العربية وآدابها . وطالت صحبتنا وتعاوننا مخلصين متأخين زهاء عشرين سنة .

ولا أعرف جماعة ألف بينها التعلم والتعليم ، ووكد صداقتها وأخذتها الصحبة في العلم كجماعتنا ، وأقصر حديثي على الأستاذ الفقيه أحمد الأمين :

لا أذكر أنى خاصمت الأستاذ أو نازعته أو نافرته ساعة واحدة في هذه السنين الطويلة على اختلافنا في الآراء أحياناً ، واختلافنا في الطرائق والأساليب والنزعات أحياناً .

ومما يحضرني الآن أنه كتب مقالات عن الأدب الجاهلي في مجلة الرسالة مخالفته بمقالات في المجلة نفسها . وقلت في نفسي — ولعلني قلت له أيضاً — سأجعل هذه المقالات مثلاً للجدال الخالص من الشوائب ، الذي لا يقصد إلا الحق ولا يبغض المخالف حقّه ، ولا يجيد قيدَ شعرة عن أدب المناظرة .

ولما طبع كتابه فجر الإسلام ، كنت معه في لجنة التأليف فأرسلت المطبعة نسخاً من الكتاب ، فحرصت على أن تظفر يدي بأول نسخة . ولما أراد إعادة طبعه سألتني أن أقرأه وأبين رأيي فيما آخذه عليه . ففعلت ؛ فذكر هذا في مقدمة الطبعة الثانية .

ولما أراد أن يضع هو والأستاذ زكي نجيب محمود كتاب قصة الأدب ، سألتني فكتبت فصولاً عن الأدب الفارسي .

كذلك كان يأنس بي ويركن إليّ ، وكذلك كنت أستشيريه وأستهديه فيما يعرض لي . كما اشتركننا في وضع بعض الكتب المدرسية .

* * *

ولما احتفل أصدقاء الأستاذ وأحباؤه بتكريمه والاعتراف بفضله فيما أخرج من كتب ، تكلمت في الحفلة فحاولت أن أذكر ما بيني وبينه ، وأن أوفيه حقّه في

عشر دقائق قُسمت لكل متكلم . فيسّر لي حبه والوفاء له أن أجمل سيرته
الكريمة في دقائق عشر . ونالت الكلمة إعجاب الإخوان حاضري الحفل .

وكنت حريصاً على لقاء الأستاذ في الجامعة كلما أمكنت الفرصة . وكان من
فرص اللقاء عشر دقائق بين محاضرتين أذهب فيها إلى مكتبه فتحدث ما وسعت
هذه الدقائق . وأذكر أن الأستاذ الإنكليزي آر برى كان يشاركنا أحياناً في هذه
الفرصة القصيرة في كل أسبوع . فسّمى هذه الاجتماع « مجمع الدقائق » وهي
تسمية بليغة وتورية طريفة .

وأتيح لي أن أسافر مع الأستاذ أسفاراً ندبنا لها الجامعة . والسفر كما يقول
العرب ، ميزان السفر (أي المسافرين) .

سافرنا في أول بعثة من الجامعة إلى البلاد العربية ، زرنا سنة ١٩٣٠ فلسطين
وسوريا وسنة ١٩٣١ العراق . وكان الأستاذ رئيس السفرتين .

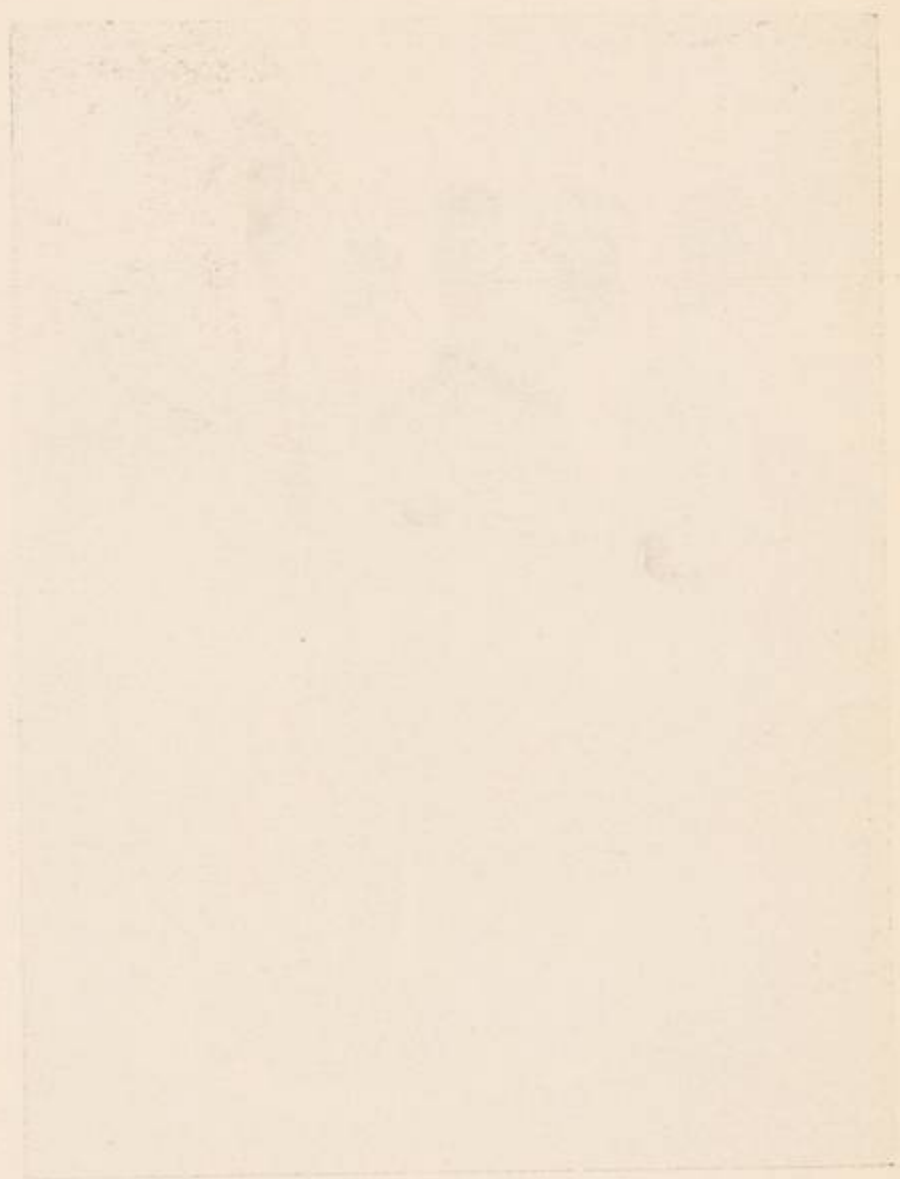
وكان لنا في السفرة الأولى فكاهات . منها أني والصديق الأستاذ العبادي نظمنا
أبياتاً نصف فيها الأستاذ وأحد الأصحاب . وسمينا الأبيات « القصيدة المكتمة » .
ولما بلغنا حلب أخبرناه بها ، ولم نطلعها عليها ، فقال ضاحكاً : سأشرحها قبل
أن أسمعها .

وكانت المكتمة حديثاً فكها بيننا . ولم نُعلنه بها إلا في سفرنا إلى العراق
السنة التالية .

والقصة في كتاب الرحلات الأولى ، ولكن الأبيات لم تنشر . وهي أبيات
لا لغو فيها ؛ أولها :



في الحجاز مع الدكتور عبد الوهاب عزام



رئيسنا المهذب والرجل المؤذب
له محيّا ضاحك واللفظ منه أعذب
وعدله في صحبه كالسيف حين يضرب

إلى آخر وصفنا إياه هو وأحد أصحابنا ، وكنا سمينا الأستاذ في هذه السفارة
« الشيخ الرئيس » .

وسنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٨ م) حججنا معاً في أول بعثة للحج من أساتذة
الجامعة وطلابها . واختلف رأينا وتصرفنا فيما لقينا من مشقات هناك ، ولم يختلف
بيننا قلب أو لسان . واقترح على رحمه الله أن نكتب معاً رسالة نسميها « الحج
بعد عشر سنين » نصوّر فيها ما نؤمله للحج وللحجاج . ولم تنح كتابة الرسالة
ولكني كتبت مقالات وأذعت أحاديث في هذا المعنى .

وفي السنة نفسها سافرنا معاً إلى مؤتمر المستشرقين في بروكسل . اصطحبنا في
السفر والإقامة منذ فارقنا القاهرة إلى أن عدنا إليها .

وكان الأستاذ يقول بين الحين والحين : أرانا اتفقنا ولم نتنازع في شيء ، فأقول
مازحاً : الفضل لي .

سافرنا إلى جنوه فيلاند فلدسون في سويسرة فبركسل . وكان موضوع مقاله
في المؤتمر « أبا حيان التوحيدى » وكان موضوع بحثي « السلطان الغورى ومؤلفات
مخطوطة كتبت له » .

وعدنا إلى باريس فرساليا . وكانت نذر الحرب تروع الناس فعبجنا العودة
إلى مصر .

وكان لنا في هذه السفارة أحاديث بين الجد والفكاهة منها قصة حلاق بركسل
ولا يمتنعى جلال ذكرى الأستاذ من تسجيل الفكاهات ، فإن لها من ذكراه
جلالا كذلك : رأيت الأستاذ يوماً جالساً في آخر صفوف المؤتمر وقبعته على رأسه .

فلما جلست إليه قال : أصابني اليوم ما أصابني من حلاق سألته أن يقصر شعري فأحفاه كما ترى والهواء بارد فلا أستطيع أن أحسر عن رأسي .

فذهبت بالخبر إلى الدكتور طه حسين ، وكان في المؤتمر ، فصار حديث فكاهة بين الحين والحين ، وسارعت أنظم أرجوزة تتضمن هذه القصة أولها :
قص علينا أحمد الأمين وهو لعمرى كاسمه أمين
ومنها :

قد أم في بركل حلاقاً لاقاه من غبائه ما لاق
ومنها :

أشار للحلاق : قصر شعري ونقمة الحلاق ليس يدرى
ولم يك الحلاق باللييب فما درى إشارة الأديب
فأعمل الموسيقى ولم يبالي بما يصيب الرأس من وبال
ونظر الأستاذ في المرأة فأبصر القروة كالصفاة
وراح بالكف يمسّ الراسا كأنمّاست يدها طاسا
فصاح بالحلاق : ماذا ماذا ؟

فقال كُمن (Comment) أنت قلت هذا ؟

وقلت في الأرجوزة إن الأستاذ تعزى بالعلماء وقال إنهم يقصرون شعرهم بل كثير منهم أصلع لا شعر له وأنه عدّ بعض العلماء إلى أن قال :
وأحسب الشيخ أبا حيانا قد كان في صلته أخانا
وكان بحث الأستاذ عن أبي حيان التوحيدي كما تقدم .

* * *

وكان لنا من بعد اشتراك في مهرجان المعري في الشام وفي المؤتمر الثقافي

العربي في لبنان ومؤتمر الأناث العربية في دمشق . وكنا في هذين المؤتمرين نمثل
اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية . وكنا ندبنا مستشارين فيها . ثم تركتها
من بعد فتولى هو رياستها .
وكانت صحبتنا في هذه الأسفار والمؤتمرات كصحبتنا في غيرها ، مودة وأخوة .
احفظ له حرمة السن والأستاذية ، ويحفظ لي حرمة الصحبة والزمالة والصدقة .
ويضيق المقام عن التفصيل . وليته يتسع .

* * *

وكان رحمه الله أول ما رشح لعمادة كلية الآداب حاز ثمانية أصوات ، ثم حاز
أكثر الأصوات المرة الثانية فاختير عميدا . ثم استقال قبل انتهاء مدة العمادة
بشهرين أو ثلاثة .
ونلت من بعد في أول ما ترشّيح للعمادة ثمانية أصوات ثم نلت الكثرة في
المرة الثانية فانتخبت .
وتذاكرنا هذا يوما فتعجب من الاتفاق . فقلت أن اطرد القياس فسأستقيل
قبل انتهاء مدة عمادتي فضحك . وقد تركت الكلية قبل انتهاء عمادتي بشهرين
أو ثلاثة أيضا . فانظر إلى عجائب الاتفاق .

* * *

وذكرت أخرى كثيرة يسهل على القلم أن يعددها . وهي كلها صغيرة في
ظاهرها كبيرة في معناها تبدو في صورة صغيرة من الجذ أو المزاح ، ولكنها كلها
ذات دلالة على صحبة خالصة في سبيل العلم وإخوة وفيه على مر الزمان ، وتقلب
الحوادث .

ويسير على أن أكتب في الجوانب المجيدة العظيمة من سيرة الأستاذ رحمه
الله ولكن هذه الجوانب معروفة أستطيع أنا وغيرى أن نكتب فيها وسنكتب ،
وهذه الحوادث الصغيرة والفكاهات العابرة لا يعرفها غيرى وأنا أضن بها على
النسيان ، وإنما عندى لعزيزة بذكرى الصديق العزيز .

رحم الله أحمد الأمين رحمة واسعة .

أحمد أمين ... ناسر الثقافة

بقلم الأستاذ

محمد عبد الواهر مفرف

كان أصدقاء الفقيه العظيم « أحمد أمين » إبان الفجعة فيه في شغل عن التحدث عنه بما يحسونه من لوعة لفراقه وما يفرهم من الحزن لفقده . وقد مضى عام على وفاته « ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر » .

وكانوا لطول صحبتهم إياه وقر بهم منه ، واتصال حياته بحياتهم واشتراك جهوده مع جهودهم ، لا يكادون يفكرون فيه مستقلا عنهم ، ولا يقفون موقف الفاحص الذي لا يكون صورة صميمة واضحة حتى يبعد . فها هو ذا قد أفرد الموت وباعد بينه وبينهم القبر .

فليس على أحد اليوم من حرج في أن يدرس أحمد أمين ويحلل شخصيته ويعرض جهوده وأعماله ، بل لعل ذلك واجب يقتضيه تاريخ العصر الحديث وقادة الفكر فيه ، وما من شك في أن أحمد أمين كان علما من أعلام الفكر ورائدا من رواد الإصلاح في ميادين كثيرة .

ولا يعينني في هذه المعجالة إلا ناحية واحدة طُلب إلى أن أعرضها عرضا مجملا هي جهوده في نشر الثقافة .

كان أول ما هيا الفقيه به نفسه لحل رسالة نشر الثقافة أن بدأ بنفسه فتولاها بتنقيف ذاتي واسع يكمل ما درسه ، ويوسع دائرة تفكيره ، وكانت هذه العملية — عملية التنقيف الذاتي — عملية متصلة لم تنقطع إلى أن اختاره الله لجواره . فكان دائما على القراءة والدرس والرجوع إلى المختصين فيما غمض عليه ، وكان يعمل

في ذلك بلا كلل ، وكانت ثمرة هذا الجهد المتصل إحاطة واسعة بالتراث العربي القديم ومعرفة دقيقة لأمّهات الكتب فيه ، وإلماما بمشاهير المؤلفين وما ألفوا فيه ، وخصائص كل منهم ، ولم يحصر قراءته في ناحية خاصة أو قصرها على علم بذاته ، بل قرأ عيون المؤلفات في كل علم وفن .

وقد أدرك منذ فجر الشباب أن اكتفائه بالثقافة العربية يحرمه الاتصال المباشر بمصادر المعرفة الحديثة فعكف على دراسة اللغة الإنجليزية وبلغ فيها مبلغا يمكنه من فهم ما يقرأ وإن كان لم يحسن التحدث بها ، وبهذا أقبل بنهم على قراءة ما كتبه المستشرقون ، كما درس كثيرا من المراجع الأساسية في الفلسفة والأخلاق والمنطق والأدب .

ولم تكن قراءته للتراث العربي أو لعيون الإنتاج الغربي قراءة سطحية يروح بها النفس ويزجى الفراغ ، بل كانت قراءة درس وخص ونقد فلا يقرأ لكاتب حتى يتفاعل معه تفاعلا قويا يمحص الفكرة ويصهرها ، ويتمثلها في ذهنه صورة واضحة دقيقة ، يرضاها أو ينقدها ، وتصبح إضافة إلى ذخيرته الفكرية يرجع إليها في يسر كلما دعت إليها حاجة .

ولم تكن القراءة هي المصدر الوحيد لتفكيره ، فقد كان في كل ما يقع تحت حسه من مشاهد ، وما يمر به من حوادث ، مادة حية لتفكيره النشط الفعال يتناولها بالوصف الدقيق والنقد الممحص ، ويخلص منها برأى جديد أو فكرة نافعة ، وكانت اتصالاته بالرجال في حياته العامة الخاصة ورحلاته داخل مصر وخارجها كذلك من السبل التي أمدته بفيض من الملاحظات الدقيقة .

بهذه الذخيرة الغنية بالمعلومات والمعارف ، وبما حياه الله به من تفكير منطقي دقيق ومن مقدرة على النفاذ إلى لباب الفكرة في كل موضوع يقرؤه أو يسمعه ، دخل الفقيه ميدان نشر الثقافة .

وقد كان دخوله هذا الميدان استجابة لغريزة قوية فيه ، فقد كان كل تفكير وصل إليه في أمر من الأمور يتمرد على الحبس في رأسه ، ويضيق بالبقاء مكنونا في صدره وينزع إلى الانطلاق حيث يسمع ويحس فكان بحاجة إلى منبر عام يختلف إليه من آن لآن ، ويعرض فيه ما وصل إليه من البحث والدرس . ولعل هذا هو السر في اتجاه الفقيه إلى مهنة التعليم ، وفي أنه كلما انحرف عنها إلى غيرها من المهن عاد سريعاً إليها ، فالتعليم مجاله لنشر ما وعيه من دراسات وآراء .

على أنه كان لا يرضى بالدائرة الضيقة التي يتيحها له التعليم وحدها ، فهو يريد أن يعرض آراءه ودراساته على الناس كافة ، غير مقيد بمادة معينة ، ولا بموضوع بذاته ، وبهذا اتجه إلى الصحافة وإلى نشر الكتب .

ومن الإنصاف للفقيه أن نقرر أنه لم يتجه إلى النشر انسياقاً وراء غريزة التعبير وحدها ، فقد كانت للفقيه مثل عليا يرغب في تحقيقها ، وكانت دراساته كلها متجهة إلى إفادة الناس فيما يصلح حالمهم وينهض بمستواهم .

بدأ جهده الصحافي بالكتابة في مجلة السفور مع فريق من إخوانه .

وبدأ جهده في التأليف بكتيب في الأخلاق ومبادئ الفلسفة .

على أنه كان قد أحس مع رفاقه من البداية ، أن التأليف والإنتاج الثقافي سيصيران العمل الأساسي لهم في الحياة ، ففكروا من أكثر من أربعين عاماً في تأسيس هيئة لنشر الثقافة فأسسوا لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد ظل الفقيه طول حياته رئيساً لهذه اللجنة ومشرفاً على سياستها الإنتاجية .

وكانما كان الفقيه يحس أنه بحكم رياسته لا يكفي أن يضطلع بأعبائها المالية والإدارية وحدها ، بل بأكبر أعبائها الفنية كذلك ، فكان إنتاجه في اللجنة أكبر إنتاج ، وكتب له التوفيق في كتبه ، فصارت من المراجع التي لا يستغنى عنها عالم أو أديب .

وتنبه الفقيد وزملاؤه في اللجنة إلى ضرورة وجود مجلة تصدر باسمهم دورياً فأنشأوا مجلة الرسالة، ثم أنشأوا بعدها مجلة الثقافة، ولقد كانت المجلتان تحملان رسالة الأدب والتفكير الحديث حقبة طويلة من الزمن، وكان للفقيد مقال في إحداها كل أسبوع. ثم نشأت ظروف اقتضت احتجابهما، فكان الأسف لذلك عاماً.

ولعل أكبر أثر خالد للفقيد هو سلسلة كتب فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، ففيها أخرج الفقيد من ذخيرته الغنية من الاطلاع الواسع المدروس المنظم، تاريخاً جامعاً دقيقاً للتفكير الإسلامى في عصوره المختلفة، يجلو ما غمض من نواحيه ويحلل أسباب الضعف والقوة فيه ويعرضه عرضاً واضحاً قوياً.

وامتاز الفقيد بأسلوبه السهل الذى يخضع اللغة للفكر ويؤثر الوضوح على تنميق العبارة، وهو أسلوب جعل العبارة طيبة له لا تقضى على إبراز ما يريد في جلاء، من غير تصنع أو تكلف.

ولم تقف جهود الفقيد عند الكتابة والتأليف، فقد شارك في ترجمة بعض الكتب الهامة كقصة الفلسفة وقصة الأدب.

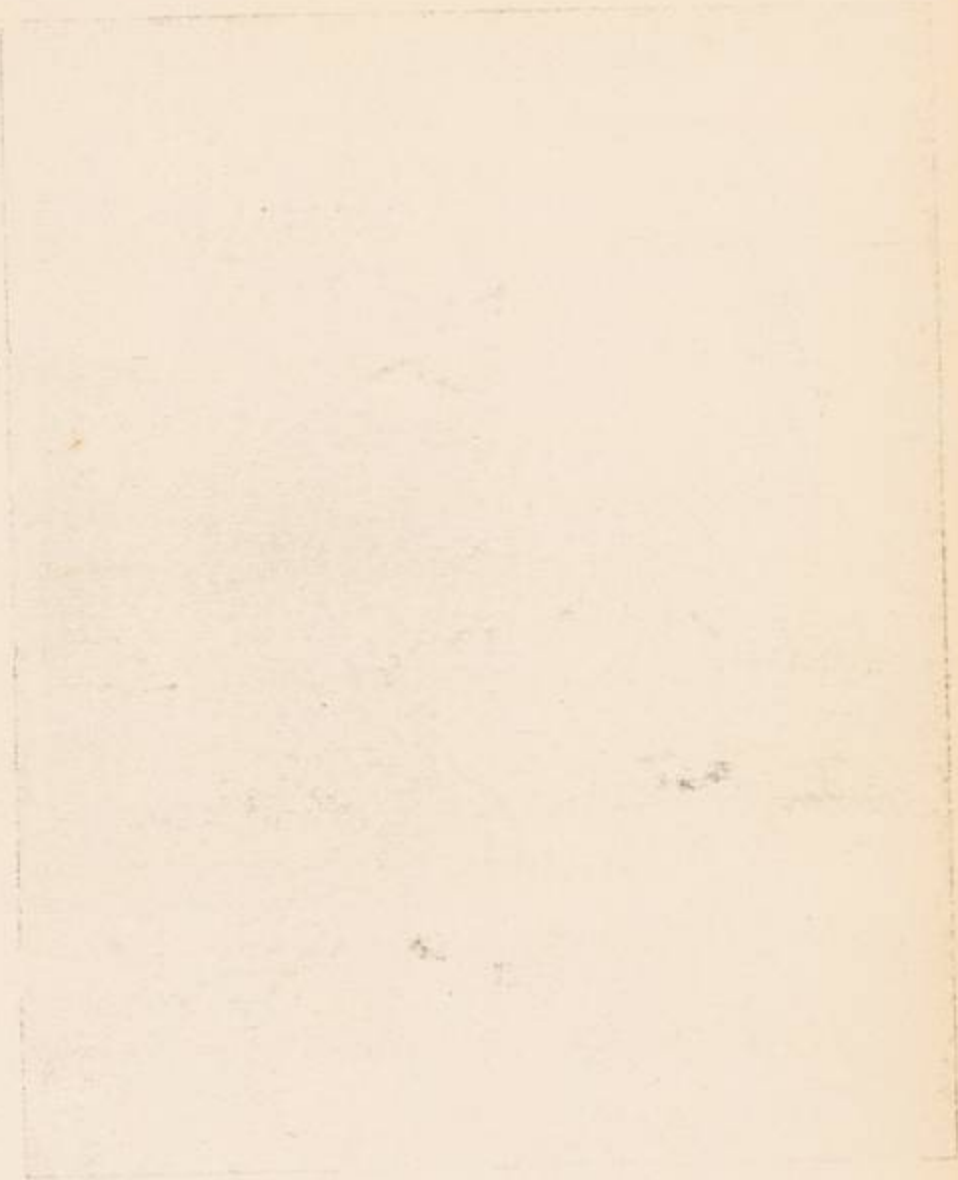
وكذلك كان للمؤلف جهد مشكور في نشر الكتب القديمة وتحقيقها، ككتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيد، وكتاب العقيد الفريد لابن عبد ربه وشرح ديوان الحماسة، وغير ذلك من الكتب التى كانت مجهولة، فأخرجها وأبرزها في صورة حديثة.

ويمكن القول كذلك بأنه كان وراء كثير من الإنتاج الذى لم يتوله بنفسه، فقد كان مع إخوانه باللجنة يرسم الخطط لإخراج كتب في موضوعات معينة، ويتخير الكاتب الملائم لذلك، ويشرف على إنجاز هذه المهمة النافعة.

وقد تولى إدارة الثقافة لوزارة التربية والتعليم فترة من الزمن، فكان من آثاره إنشاء الجامعة الشعبية وتشجيع التأليف والترجمة بمكافآت مالية.



أحمد أمين يخطب في الجامعة الشعبية



مكتبة جامعة القاهرة

فهو منذ ولي الأعمال العامة دائب على نشر الثقافة ، ينشرها كاتباً في الصحف والمجلات ، وينشرها مؤلفاً لكثير من الكتب ، وينشرها مترجماً لبعض الكتب الأجنبية النافعة ، وينشرها بإخراج عيون التراث الأدبي القديمة وتحقيقها ، وينشرها بتشجيع المؤلفين والمترجمين ، وأخيراً — لا آخراً — كان للفقيد ندوة مساء كل خميس بدار اللجنة يختلف إليها أعضاء اللجنة وأصدقاؤها من العلماء والأدباء ، وكان الفقيد واسطة الحلقة ، والرأس المنظم لما يدور بها ، وكنا نستمتع بما يفيضه علينا في تلك الندوة من آراء وأفكار وملح وأخبار .

يا أسفاه مضى ذلك !

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

شخصية أحمد أمين

بقلم الأستاذ

محمد فريد أبو هريرة

عرفت الأستاذ أحمد أمين أول شبابه ، وتعودت منذ أربعين عاما أن أراه جانبا هاما من عالمي الذي أعيش فيه ؛ فمذ خلا مكانه في الحياة شعرت بأنني قد فقدت بعض عالمي .

على أن أحمد أمين كان جانبا هاما من عالم كثيرين غيري ، فقد كان يحل من أصدقائه في مثل المكانة التي حل فيها عندي ، وكان له تلاميذ لا عداد لهم بعضهم يتلقى عليه العلم في مدرسة القضاء الشرعي أو في الجامعة ، وبعضهم تلقى عليه العلم في مقالاته وفي محاضراته أو أحاديثه . وهؤلاء جميعا يحسون فقدته كما أحسه ، ومذ خلى مكانه في الحياة يرون جانبا هاما من عالمهم قد أصبح خاليا .

ولكن أحمد أمين خلف لنا صورة باقية خالدة تتأملها كما تتأمل المعاني الأبدية ، وهي صورة لا يعترىها الفساد الذي يعترى الأجساد ولا تساورها الدوافع الدنيا التي تساور مادة الأرض . صورة هادئة يحيط بها السلام الشامل ، وتحتل مكانها بين الحقائق ، منزهة عن العواطف البشرية متجردة من الغايات والتحيز . ونحن إذ نتحدث اليوم عن أحمد أمين ، إنما نتحدث عن هذه الصورة الخالدة المقيمة إلى الأبد في عالم الصور المجردة التي تتكون منها معالم الطريق الإنساني نحو السكالم . والتي تتكون من مجموعها عقائدنا ومثلنا العليا ومقاييسنا الخلقية والاجتماعية والفلسفية .

وسوف يتحدث الكثيرون عن أحمد أمين كما نتحدث نحن عنه الآن لأنه منذ رحل عن دنيانا صار صديقاً للجميع . زميلاً لأجيال كثيرة لم تخلق بعد ، يعيش معهم في عالم الصور حياة أكمل من الحياة التي كان يعيشها معنا ، ويشغل من عقولهم ونفوسهم جوانب أرحب من الجوانب التي كان يشغلها منا . وهذه الأحاديث كلها ، سواء كانت من أحاديث الأصدقاء الذين عاصروه ، أو التلاميذ الذين استمدوا العلم منه ، أو من أحاديث الأجيال العدة التي يغمرها الغيب ، تعترف اعترافاً صريحاً بأن الإنسانية مدينة له بأكبر الدين . وقد تتنوع تلك الأحاديث وقد تختلف فيها وجهات النظر وقد يشتد فيها الجدل حول الآراء التي خلفها لهم ؛ وهي في كل الأحوال تردد الاعتراف الصريح بالدين العظيم الذي له في أعناق الإنسانية .

ولست أدري كيف أشعر وأنا أكتب هذه الكلمات بتيارين مختلفين من التأثير أحدهما إحساس بالإيناس والرضا ، والآخر إحساس بالإشفاق والتردد . فأما الإيناس والرضا ، فذلك لأنني أجد في الكتابة عن أحمد أمين لوناً من الغبطة التي طالما نعمت بها في مصاحبته ومحادثته ومناقشته ومعاطاته المودة ، ولأنني أستمتع في أثناء الكتابة بتأمل صورته واستعادة ذكريات مجالسه السمحة ومواقفه الكريمة . وأما الإشفاق فذلك لأنني أتهيب الحديث عنه ، لعلمي بأن صورته التي أعرفها أبداع مما يتأتى لي بيانه في هذه الألفاظ الضئيلة التي تعودنا أن نعبر بها عن المعاني المعتادة والصور المألوفة : وشخصية أحمد أمين بالنسبة إلى تنطوي على معان أدق من طاقة الألفاظ على البيان ، وإذا تأملتها انبعثت في نفسي خلجات أعمق من طاقة الوصف على التحديد . ولو كان أحمد أمين رجلاً عرفته وحدي لما شعرت بمثل هذا الإشفاق ، لأنني كنت أقنع بما يتهبأ لي من الوصف والتعبير ، وحسبي أن أصدر فيما أكتب عما أستطيع ، ولكن أحمد أمين رجل عرفه جيل كامل من معاصريه في مصر وسائر الأقطار العربية ، وتحدث عنه أوف وأوف

في مشارق الأرض ومغاربها ، وسوف يعرفه ويتحدث عنه في مستقبل الأجيال
ألوف وألوف أخرى في آفاق الأرض البعيدة والقريبة . سوف تنشغل أجيال من
أبناء العروبة بترائه الضخم من الفكر والأدب والعلم ، وسوف يتحدثون عنه
ويرسمون صوراً شتى لشخصيته معتمدين على الآثار التي يستمدونها من آرائه وأدبه
وطريقة بحثه . ومن حق الأمانة على أن أقول لهؤلاء جميعاً إن الصورة التي أحاول
رسمها لا تزيد على لمحة محدودة بدت لي من الجانب الذي عرفته ، وإني أشعر
شعوراً مخلصاً بأنني لا أستطيع أن أبرز لحتى المحدودة إلا من وراء غشاء كثيف
من اللفظ الساذج الذي تعود الناس أن يصوروا فيه مشاعرهم المعتادة ، وعذري إليهم
أنني أول من يدرك الفرق العظيم بين الصورة التي أراها في خيالي وتذكراري وبين
المحاولة القاصرة التي تهيأ لي في مقال .

عاش أحمد أمين حياة مليئة خصبة ، لأنه أراد أن تكون حياته مليئة
خصبة . وقد كان من أحب كلماته إليه عند ذكر أفذاذ العطاء الذين وهبوا حياتهم
لخير الإنسانية ، أن يقول عنهم إنهم عاشوا حياة عريضة . وكثيراً ما سمعته يتمنى
تلك الأمنية لنفسه في صوت خافت كأنه يحدث بها الأقدار في ضراعة وخشوع .
وكان أكثر ما يحشاه في آخر أيامه أن تمتد به الحياة طولاً بغير أن تحتفظ بعرضها
وخصبها ، فلم يرض أن يستمع إلى نصيح المشفقين عليه من الجهد وكان يحيمهم قائلاً
إنه لا يريد الحياة إلا من أجل ذلك الجهد . وقد رأيت قبيل وفاته بأيام تلالل
وكان عند ذلك يستعد للسفر إلى الإسكندرية وهو ظاهر البشر تشمله همزة قوية
تشبه همزات الشباب إلى التمتع بالحياة . وما كانت هذه همزة القوية إلا من أجل
تحفزه للعمل في أيام الصيف المقبلة ليضيف فيها إضافة جديدة إلى ترائه الأدبي الجليل .
وقد رأيتته مراراً كما رآه كثير من الأصدقاء في أيام مرضه عندما كنا نحشى
عليه فقد البصر وهو طريح الفراش ، وكان من أشد آلام المرض عليه أنه قضى
أيامه ولياليه ساكناً لا يتمتع نفسه بمواصلة العمل وبذل الجهد . وأغلب ظني أنه

كان في ساعاته الأخيرة يشعر بسعادة كبرى إذ تبين له آخر الأمر أن أمنيته قد تحققت وأن خواتيم حياته كانت مثل أوائلها عريضة عظيمة الخصب كما كان يريد . ولم تكن حياة أحمد أمين مليئة خصبة من ناحية إنتاجه الفكري والأدبي وحدها ، لأنه كان فوق هذا قوة دافعة فذة تصدر عن حيوية فذة . وفي هذه الخصوبة وتلك القوة الدافعة تتمثل المعالم الكبرى لشخصيته كما تبدو في كل أدوار حياته .

على أنى إذ أتحدث عن هذه المقدرة العجيبة على الإنتاج وهذه القوة الدافعة التي كانت تتجلى فيه إنما أصف الأثر الظاهر الذي يبدو أمام الأنظار وما هو إلا المظهر الخارجي لتكوين شخصيته الممتازة ، وما هو إلا الفيض الغزير الذي ينبع من معين طبعه الخصب .

وقد خيل إليّ عندما بدأت الحديث عن أحمد أمين إنني لن أجد مشقة في تعرف أسرار تلك الشخصية الفذة وتحديدها ، إذ أننى عرفت الرجل وخبرته وامتمدت صداقتنا عشرات من السنين وقفنا خلالها في مواقف شتى تكشف عن الطبايع الكامنة وتمتحن خفاياها . ولكنى عندما بدأت أجمع شوارد الذكريات لأستخلص منها الوصف الذى أطمئن إلى صدقه تجلت لى الحقيقة العجيبة التى تتجلى لنا دائماً إذا ما حاولنا أن نحدد أقرب الأشياء إلى أذهاننا وأوضح المشاعر فى نفوسنا . فمن أصعب الأشياء أن نوضح الواضح فى أذهاننا وأن نعبر عن الشاعر القوية الماثلة فى نفوسنا . ولعل قوة الأثر الذى يقع فى النفس يجعلنا لانرضى عن الصورة التى نعبر بها عنه ، أو لعل امتزاج أحكامنا بالعاطفة القوية يجعلنا لانرتاح إلى شئ آخر غير تأمل الشعور نفسه .

ولقد كان لأحمد أمين فى نفسى مكانة كريمة منذ عرفته ، وكان له فى قلبى من المودة ما يجعلنى أرى شخصيته دائماً من خلال مودتى . فهل أستطيع هنا أن أقرر أن من أبرز مميزات شخصيته مقدرته على إثارة الثقة والمودة فى قلوب الأصدقاء ؟

هل يستطيع أن أقول إن شخصية أحمد أمين تستمد جانباً كبيراً من قوتها من ذلك النبع الإلهي الذي يوحى بالآلفة؟

كان أحمد أمين يتوسط أصدقاءه وكأنه مجرد من نفسه لكل منهم شخصاً يناسبه ويلائمه ، وإن كان الأصدقاء أنفسهم يختلفون فيما بينهم في الطباع والميول . وقد كان لهذه المقدرة على الآلفة والإيحاء بالثقة أكبر الأثر في قوته الدافعة التي كانت دائماً تؤثر فيما حوله . كان دائماً يتعاون ويثير فيمن حوله روح التعاون ، وكان دائماً صادقاً مخلصاً ويثير فيما حوله روح الصدق والإخلاص . وكان صريحاً عادلاً ويوسع صدره دائماً للصراحة والعدالة .

وكان يقدر الحق ويدعن له مسرعاً راضياً ، حتى لقد كان في بعض الأحيان يرتد من طرف في الرأي إلى الطرف الآخر إذا ما تبدى له وجه الحق عند المناظرة . ولكنه كان في الوقت عينه يتطلب الحق فلا يتساهل فيه مادام قد احترمه مع غيره .

اجتمع في يوم من الأيام في مجلس الجامعة وكان من أعضاء المجلس رئيس وزارة سابق وهو (باشا) معروف بشدته وجفاء معاملته . وثارَت مناقشة في المجلس فأخذ الباشا يتحدث وكان في حديثه شيء لم يعجب أحمد أمين فاندفع يقاطعه . فتوقف الباشا عن الكلام وأتجه إليه قائلاً « أرجوك ألا تقاطعني » فخضع أحمد أمين للحق واعتذر حتى انتهى الباشا من حديثه فشرع يرد عليه بحجته . وفيما كان مستمراً في كلامه اندفع الباشا يقاطعه . فتوقف هو لدوره وأتجه إلى الباشا قائلاً « أرجوك ألا تقاطعني كما رجوتني ألا أقاطعك » فلم يسع الرجل إلا أن يخضع واعتذر .

ولم يكن ذلك دأب أحمد أمين في حلقة أصدقائه خاصة فقد كان دائماً يوحى بالثقة والمودة إلى من حوله . وكان دائماً يبعث الحركة فيما حوله . وكان في بعض الأحيان يندفع مع صراحته إلى شيء يشبه العنف ، ولكنه لم يخرج من أحد هذه

المواقف العنيفة بخدش في الثقة أو المودة ، إذ كان إخلاصه وتقديسه للحق والعدل
يمحوان كل ما في صراحته العنيفة من صرامة . ولست أذكر أنه اتصل بعمل من
الأعمال ولم ينفخ فيه روحاً قويا ويدخل عليه إضافة جديدة قيمة . فعندما كان في
مدرسة القضاء الشرعي مدرسا ناشئا ، كانت في مدرسة القضاء حركة حية له منها
قسط وافر وعندما صار رئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر صار منها بمثابة المحرك
القوى الذي لا يعرف الفتور ، ولما عين مديرا عاما لإدارة الثقافة العامة بوزارة
المعارف جعل من إدارته أداة للإشعاع والتحرير في نواح عدة وأنشأ الجامعة
الشعبية ، ولما صار مديرا للإدارة الثقافية بالجامعة العربية كان له في كل يوم
فكرة جديدة وعمل إنشائي طريف ، والثقافة العربية مدينة له أ كبر الدين بمشروع
إنشاء مكتبة من الأفلام الصغيرة التي تسجل فيها نقاش المخطوطات ونواد
المؤلفات العربية القديمة . كان له معين لا ينضب من التجديد والابتكار ومن
ورائه عزيمة قوية لا تعرف التردد . وقد كنت أعجب كثيراً مما كان يبدو لي
فيه مما يشبه التناقض بين مظهره الوديع وجانبه اللين وبين إرادته القوية التي
تكاد تكون صارمة . كنت أراه كما يراه أصدقاؤه جميعا هادئا سمحا عذبا ، فإذا
ما بدا له وجه الحق في أمر من الأمور لم يخرج عن هدوئه وسماحته وعذوبته
ولكنه كان يمضى في سبيله كأصلب ما يكون إرادة . كان لا يحب التردد
ويقول أحيانا إن المضى في تحقيق الغاية وإن كان مع الخطأ خير من التردد
والتزعزع وإن كان ذلك لتحري الصواب . ومع هذا فقد دلت التجربة
الطويلة على أنه كان في عزماته يصدر عن طبيعة كاشفة موفقة .

ولست أدري على وجه التحقيق ماذا كانت فلسفة أحمد أمين في الحياة أو
بقول أدق كانت له فلسفة خاصة لا تشبه في شيء مذهباً قائماً بنفسه . كان عظيم البشر
مرح النفس ولكنه مع هذا كان شديداً الجدد ولم يخل من بعض الشاؤم . وكان زاهداً
في مظاهر الحياة ولكنه لم يكن رواقياً ، وكان يأخذ الناس كما يجدهم ولا يكلف

الأشياء ضد طباعها ولكنه مع هذا لم يكن واقعيا عمليا بمعنى الفلسفة الواقعية بل كان يؤمن بالقيم الأخلاقية والمثل العليا. وكان يميل إلى التفاهم على الحلول الوسطى في شئون الحياة ولكنه كان لا يتساهل في معاني الكرامة والنزاهة والمروءة . كان كريما إلى أبعد حدود الكرم ولكنه مع هذا كان لا يجب الإسراف . كان متدينا أعمق الإيمان ولكنه كان يفسح عقله للمناقشة الحرة إلى أبعد حدود الحرية . كان يقدر المنطق ويتحكم في عواطفه ولكن قلبه كان يتقد حرارة ولا يكبح قلبه عن نبضات العواطف . كان يحب التمتع بالحياة ولكنه كان متواضعا إلى أقصى حدود التواضع ولكنه كان أحيانا يتعالى إلى حد الكبرياء . كان ينهى على الأسد سطوته ولكنه يرثى للأسد الجريح . ومن أجل هذا كله خيل إلى أنه صاحب فلسفة خاصة حدد بها حياته ولكنها فلسفة تجمع أشناتا من المعاني لا تأتلف إلا في شخصه . وكانت فيه طيبة تتمثل في بساطة مظهره و بساطة معشره و بساطة نمط حياته ، وكانت تتمثل في بساطة تفكيره و بساطة أسلوبه في العمل ، ولم تفارقه هذه الطيبة بما فيها من مظاهر البساطة منذ شبابه إلى آخر حياته .

ومن آثار تلك الطبيعة السهلة أنه كان لا يعبا كثيرا بالأوضاع المألوفة ، فلم يحور يوما من مسلكه ابتغاء مرضاة غيره . كان عميدا لكلية الآداب وقت أن كان الحكم في يد حزب قوى لا يقف شيء أمام سلطانه الساحق . ولما تعارض مسلكه وأسلوب فكره مع المسلك الذي تريده وزارة ذلك الحزب لم يتردد في الاستقالة . ولكنه لم يلفت الأنظار إلى استقالته كما تعود غيره حتى كاد أصدقاؤه أنفسهم لا يفتنون إلى عزيمته . ولما ناقشه بعض أصدقائه في ذلك لم يزد على أن أظهر دهشته من أن الأمر لا يستحق أن ياتمت إليه أحد . ولم يكن يأخذ في اعتباره عند الحكم على الأشخاص ما يكون لهم من المكانة الاجتماعية ، وكان يقيم أحكامه على أساس واحد يستمد من القيم الإنسانية المجردة من المظاهر

المصطنعة . وما كان ينكر شيئا مثل إنكاره ما يطرأ على الناس من تغير إذا بلغوا شيئا من الجاه أو السلطة ؛ ويرى ذلك علامة على فقدان الأصالة في الشخصية . وإنه لمن الإنصاف له أن أقول عنه أنه كان من أصدق الناس أصالة في شخصيته . رأيت منذ أر بعين عاما لأول مرة فرأيت شابا طوالا يسير متمهلا وينطق متمهلا بصوت هادى فيه نعمة تم حركة وحرارة ، وتميز نطقه لثغة بالراء تكسب ألفاظه رخامة وكان يلبس منظارا سميكا تبدو من تحته عينان تشعان طيبة وبساطة . وكان يلبس زى الشيوخ ويتخذ لنفسه لحية خفيفة لأنه تخرج في مدرسة القضاء الشرعى وكان عليه أن يلتزم الحدود التى يلتزمها علماء الدين في مظهرهم . ولست أذكر أنى رأيت يوما يختار لونا من الألوان الزاهية التى كانت تميز زى الشيوخ فى تلك الأيام ولكنه مع هذا كان يبدو أنيقا من أثر الانسجام بين هدوء طبيعته وهدوء ظاهره .

وتوثقت المودة بيننا شيئا بعد شيء على مر الأيام وأخذت أتعرف حقيقته شيئا بعد شيء . وإنه لمن أعجب الأمور أن يتأمل الإنسان ذلك الشاب الشيخ منذ أر بعين عاما ثم يتأمله فى آخر حياته بعد أن تم نموه وكملت شخصيته ، فلا يكاد يرى فرقا بين الحالىين فى كل ما هو جوهرى فى الشخصية . وما ذلك إلا لأن أحمد أمين الشاب كان ينطوى على طبائع أصيلة تطورت ونمت ولكنها بقيت محتفظة بكيانها وجوهرها .

وكان من تمام أصالة أحمد أمين أنه لم يعتمد فى حياته على شيء سوى أصالته ، وقت أن كان الكثيرون يعتمدون على مناصرة الأقوياء أو معاونة الأولياء . فقد شق أحمد أمين طريقه وحيدا فردا . بدأ معلما فى مدرسة القضاء فقاضيا فمدرسا فى الجامعة فاستاذاً ، ثم تنقل فى درب البحث العلمى والأدبى وأنتج ما أنتج غير معتمد على شيء سوى أصالته . لم يكن يعرف لغة أجنبية فوجد أنه يحتاج إليها فعكف على دراستها حتى استطاع أن يفتح مغاليق المراجع الإنجليزية ويعترف

منها ما شاء من مكتبة غنية اقتناها لنفسه . ولما بدأ التدريس في الجامعة لم يكن قد تخصص في دراسة الأدب واللغة إلا بمقدار ما يتخصص فيها طالب الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ، ولكنه شق طريقه حتى لمع اسمه كأستاذ فذ تفخر به الجامعة . وكان يقدم في كل الميادين التي عمل فيها على مشروعات جديدة لم يحاول أحد من قبله أن يقدم عليها ، فإذا هو يشق فيها طريقه قويا ويخلف منها عملا ضخما قويا . ومع كل هذا كان أحمد أمين يبدو هادئا متسهلا كأنه لم يشق طريقه في الصخر حتى يصل إلى القمة التي لا يصل إليها سوى أفاض البشر ، وما ذلك إلا لأنه كان يحس في أعماقه أنه لم يبلغ سوى مرتبة طبيعية كان لابد له أن يصل إليها . كان مثل الشجرة الطيبة التي تنقل في نموها إلى مساح السحب ولا تستطيع إلا أن تبلغ إلى تلك الغاية في نموها ، لأنه كان أصيلا في شخصيته الضخمة مثل الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

صورة احمدين

بقلم الأستاذ

محمود نبور

أ كنت سائرا فحوة يوم في شارع « قصر العيني » فصادفت امرا يعبر الطريق ، وهو يسارق الخطا ، هين المشية ، خاشع البصر ، يتلفت في مراقبة ، وحذار ، كأنما يستخفي عن أعين الناس ؟

لوتاح لك أن تصادف امرا هذه صفته ، لجرى في خاطرك على الفور أنك ترى رجلا من أولئك الذين نعتهم بطيبة النفس ، وصفاء النية ، والكف عن الضرب في غمرات الحياة ، ولحدثتك نفسك بأن هذا الرجل يستوحش من الدنيا ، كأنه بين أهلها غريب !

ولعلك لا تلبث أن تجد الرجل قد أثار بين جوانحك عاطفة من التوسم له ، والتعرف به ، فإذا أنت متأثر خطأه ، تريد استطلاع أمره ، يحدوك إلى ذلك ما تلمح من سميت غير مألوف .

وما هي إلا أن ترى الرجل قد عرج على دار « المجمع اللغوي » وأخذ يتسامى على سلمه ، متلقيا ممن حوله تحايا الاستقبال ، وهو يردها بأحسن منها في وداعة محببه تجلوها ابتسامة خفرة ، وأنت لتجده يسخو بهذه التحية لمستقبليه من الكبراء وغير الكبراء بدرجة سواء .

ويستهويك ما تشهد من أمر الرجل ، فتتابعه في مسيره ، حتى يسلمك إلى قاعة مديدة تغص بمنضدة مبسوطة ، قد ترصصت عليها كتل من الأسفار ، ما أشبهها بمجاجم أثرية ضخام !

وثمة ترى صاحبك قد أوغل في القاعة ، حتى إذا بلغ منها مكانا قصيا ،
أخذ مجلسه في سكينه وركون ، كأنه يخشى أن يشعر بمقدمه أحد ، وما أسرع
أن يمد يمينه إلى سفر من هذه الأسفار ، فيقلب في صفحاته لحظات ، ثم يمسك
عنه ، وقد تكش في مجلسه وأطرق ، حتى لتقول أغفى !

وتعمر جوانب القاعة بالقصا ، ويكتمل الجمع ، فيتجاذب الرفاق أطراف
النقاش ، وتدور بينهم معركة الرأي حامية الوطيس ، وصاحبك على حاله ، لا تنبس
له شفة ، ولا يظرف له جفن ، فتحسب أنه ساه عما حوله ، لا يجرى شيء منه
بباله ، فتتركة وشأنه ، ويشغلك التحاور والجدال . وفيما أنت كذلك إذ يداعب
سمعك صوت يخلج مترقفا يحاول أن يجد له طريقا في ملتطم ذلك الزحام ، وإذا
تبينت القائل عرفت أنه صاحبك المنطوى على غفوته ، فتأذن له وأنت عليه
مشفق ، فيروعك أنه قد استبطن الصميم من البحث ، وأنه يجمع لك في فقرات
ما تشعب من أطراف الرأي ، ولا يعتم أن ينتهي بك إلى حكم تأنس إليه النفوس ،
وتضيق به فسحة الخلاف !

وتظل مسحور السمع بهذه المساجلات الطريفة التي تصطرع فيها عقول ،
وتستطع بدائه ، غافلا عن استشارة تلك الساعة العتيقة التي تبرز على حائط القاعة
وما أنت لو استشرتها بمستفيد ضبطا لوقتك ، فإنما هي ساعة جمعية ، كأنما أعليت
في مكانها لتستهزىء بدورة الفلك ، وتسخر من حساب الزمن .

ولتجدن المناقشات قد تناوحت يمنة ويسرة ، ولربما اشتد اشتباكما واحتد ،
وأنت معقود العين بصاحبك ، تفقو مشاركاته فيما يتراعى من وجهات
النظر ، فإذا بشخصيته تتوضح لك شيئا بعد شيء ، وكأنك تجمل كتابا شائقا جد
شائق ، كلما قلبت من صفحاته ازدددت به من تعلق ، وطمحت منه إلى جديد !
إنه في شتى مناقشاته ومناقلاته لا يفارق سمته ، فهو أبدا هادي القسما ،

رفيق الإشارة ، أرمحي الروح ، يتميز بذلك الصوت المختلج الحى . . . ولسكنك
تستبين من وراء ذلك كله إيماناً منه بفكرته ، وثباتاً فى تعزيزها ، ولباقة فى
الدعوة إليها .

وإذا بهذا الرجل الذى رأيتَه أول ما رأيتَه متكشفاً مستوحشاً ، فحسبته ممن
لاحظ لهم فى معترك الحياة — قد تفتق إهابه عن زعامة بصيرة قادرة تنتهج
لها طريقاً لا عوج فيه .

وتعجب لصاحبك ، وقد استحر نقاشه ، وجعل يطرح رفاقه مصطلحات
العلم فى صلابتها وخشوتها ، إذ تراه وقد دس بين هذه الصخور والجنادل — فى
الفينة بعد الفينة — ملححة فكهة ، أو مزحة طريفة ، لا تلبث أن تشيع فى جو
المجلس نسمة من الطرب والمرح . فتعلم أن صاحبك على وثاقة علمه ، وأصالة وقاره ،
يجيد ما يجيده « ابن البلد » من خفة وإيناس ، فهو يحسن أن يستخرج من اللفظة
الجافية « لابن سيده » أو القاعدة المعقدة « لسيبويه » نكتة ضاحكة ، أو دعاية
لطيفة ، تحيل تلك الجنادل والصخور رياضاً حالية بالنضرة والازدهار . . .

ولا يكاد ينتهى بك المجلس الأول فى صحبة الرجل ، حتى يفريك ما استبان
لك من أمره بأن تطلب المزيد .

* * *

إذا جاز لنا أن نوجز وصف « أحمد أمين » فى كلمة ، قلنا : إنه « بناء » !
ولقد ملكت هواه نزعة البناء والتشيد ، وأولع بها أيما ولوع ، فوقف عليها
فكره وجهده ، تارة يزاول ويمارس ، وطوراً يشرف ويرعى ، وحيناً
يحمض ويدعو .

وخير ما يمتاز به هذا « البناء » فى نزعتَه ، أنه اجتماعى عصرى ، وأنه واقعى
عملى ، إذا عنت له فكرة رسمها فى ذهنه أدق رسم ، وجعل لها خطة محكمة ، وقدر

لها كل ما عساه يكون من أقدار . ولا يكاد يد يده ليضع الحجر الأساسى لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوثق من الأمر غاية الاستيثاق ، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ ، فإذا البنيان تملودعأتمه ، وإذا هو حصن للقرايح والعقول .
وعبقرية هذا « البناء » العظيم تتمثل فى أنه يجعل لزركته طابعاً من التجديد ، لا مغالاة فيه ولا انسلاخ . فهو إذا شيد التمس لأساس بنيانه عتاداً من كنوز الشرق وأبجاده ، ولكنه يقيم على هذا الأساس طرازاً تتوافر له كل مزايا التحضر العصرى والعمران الحديث .

وهذا « البناء » العظيم يرمى دائماً من وراء سعيه إلى هدف مقصود ، ذلك أن له رسالة إصلاحية واضحة ، ينبغى بها تجديد العقلية العربية ، وإمدادها بما يعينها على ملاحقة الزمان فى سيره الخيىث .

حول محور هذه الرسالة الإصلاحية يدور فكر الرجل ، ولا يميل أن يدور . وكان هذا المحور مغزل يستمد منه الخيوط لينسج منها أعماله ومساعيه ونفحات قلبه .
أقرأ كتابه « فجر الإسلام » وصنويوه : « الضحى » و « الظهر » تجده يؤرخ الحياة العقلية للمسلمين فى مواضى الحقب ، ولكنك تستطيع أن تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع تلك الروح الأصيلة ، روح الدعوة إلى الإصلاح ، والتوجيه إليه ، إذ هو يجلو لك منهاج الفكر العربى فى تطوره وسموه ، ويميط الغبار عن معالمه ، ويريك الضوء من مصابحه .

ولم يكن محبباً أن يشغف الرجل بدراسة القادة الأعلام الذين هم طليعة النهضة فى الشرق الجديد ، وإن كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ليكشف لك أن الرجل يعنى أكبر ما يعنى فى تاريخ أولئك القادة الأعلام وتصوير حياتهم بإبراز ما كان لهم من جهود فى سبيل النهوض بالعقلية الشرقية ، وفى نشر رسالة التجديد .

وإليك كتابه « فيض الخاطر » ، لكأنه « فلم » سينمى تتوالى فيه الصور والمشاهد « فيلم » تنطبع عليه استجابة ذلك « البناء » الداعى إلى الإصلاح لكل ما يلابسه فى الحياة والمجتمع . وإنما لصور شائقة ، ومشاهد رائعة ، تأنس فيها قبسة من الفن فى العرض والتعبير ، حتى لتدهش إذ تتجلى لك — فى شخصية هذا العالم الدارس — صبغة الأديب الفنان .

وأنت لو تصفحت مختلف الجوانب من شخصية « أحمد أمين » لطالعت عينك صورة قاض تتوضح فيه نزعة القضاء بأوفى ما فيها من خلال الدقة والوزن والنظام وأكرم ما فيها من خصال النزاهة والعدالة ويقظة الضمير .
إنه قاض فى خاصة شأنه مع نفسه ، قاض فى حديث مجلسه ، قاض فى الجامعة وأستاذًا على مكتبه رئيس عمل ، قاض فى معاملاته مع الناس بين قريب وبعيد ، قاض فيما يجرى به قلمه من مباحث ودراسات وخواطر . . .

وقد عرفت الأقدار نزعة القضاية فى بواكيرها ، حين شب شبابه ، فأرادت له أن يكون أحد قضاة الشرع ، يفصل فيما هنالك من خصومة ونزاع . . .
ولكنه لم يمتك فى منصب القضاء طويلا ، فترك الميدان المحدود ، ليكون قاضيا طليقا لا تقف به قيود المهنة عند غاية ، ولبث فى دنياه ، على اختلاف مناصبه وتنوع مجالات نشاطه ، تملكه نزعة القضاء ، وتهيمن على فكره ما وسعها أن أن تهيمن .

وهذه النزعة القضاية قد وسمت حياة الرجل فى مناحيها العقلية والاجتماعية بسمه الاعتدال . . . فهو معتدل أبدأ فى تقديراته وأحكامه ، معتدل أبدأ فى علاقاته ووشائجه ، لا يجمع فى القسوة ، ولا يترأخى فى اللين . يجب حين يجب هونا ما ، ويبغض إذا أبغض هونا ما . أنأى ما يكون عن التعصب والتحزب ،

آف ما يكون للسرف والتطرف ، أميل ما يكون إلى المودعة والحسنى !
والعجب العاجب في شخصية « أحمد أمين » أن نشأته قد اكتنفها كل
دواعي التحفظ ، من معتقدات راسخة ، وتقاليد صارمة ، وتعاليم جامدة ...
ولكن فكره توهج والتمع وسط ذلك كله ، كما يتلأأ الجواهر النقى ، وخرج
يلتمس الطلاقة في الأفق : الأفق الرحيب . فإذا التمسنا الآن حرية الفكر بين
القادة الأعلام ، ألفيناه منار الطريق .

أحمد أمين ... الكاتب

بقلم العلامة

الأديب مصطفى السرايى

رحم الله الأستاذ العلامة أحمد أمين فلقد قضى عمره فى خدمة آداب لغتنا الضادية المضرية ؛ وترك لأبناء يعرب ثروة من المؤلفات النفيسة ، ستبقى حية يتناقلها شبابنا المثقف جيلا بعد جيل .

فأى شاب عربى من المتأدين لم يطالع مجلدات تلك السلسلة الرائعة من تاريخ الأدب العربى التى تبدأ بفجر الإسلام ، وتنقل إلى ضحى الإسلام ، فألى ظهر الإسلام ، وكلها كنوز من المعرفة كتبت بأسهل لسان ، ونقلت عن أصح مصادر ، واشتملت على أدق الآراء العلمية .

وأى متأدب عربى لم يقرأ مقالاته وأبحاثه الأدبية والاجتماعية والخلقية فى مجلة الرسالة ، ثم فى مجلة الثقافة ، وقد تألف منها ذلك السفر النفيس المسمى فيض الخاطر فى تسعة أجزاء .

ومنذا الذى لم يقرأ كتابا من مئات الكتب التى نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهى اللجنة الشهيرة التى يدير شؤونها رهط من الأدباء والعلماء ، والتى مكث الفقيد رئيساً لها من الزمن كادت تبلغ أربعين سنة .

وهناك كتاب « الأخلاق » طبع خمس مرات ، وهو يعد من أجل الكتب فى بابهِ ، وكتاب « حياتى » صور فيه حياته وحياة رجال عصره وبيئته أجل تصوير . ثم هناك مشاركته للدكتور شوقى ضيف فى تحقيق الخريدة للأصفهانى وللأستاذ أحمد الزين فى تحقيق كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ، وفى تأليف قصة الفلسفة اليونانية مع الدكتور زكى نجيب محمود وقصة الفلسفة الحديثة فى

جزأين ؛ وقصة الأدب في العالم في أربعة أجزاء ، وهناك دروسه في النقد الأدبي بكلية الآداب وقد نشرها في جزأين إلى آخر ذلك المتنوع الأدبي والعلمي الذي خلد اسمه في عداد كبار أدبائنا العاملين المجدين .

والفقيه مصري صميم يقول في كتاب « حياتي » إن أباه كان فلاحاً من مديرية البحيرة ، هجر القرية إلى القاهرة ، هرباً من الظلم والسخرة ، والتحق بالأزهر ، ثم كان مصححاً بالمطبعة الأميرية ببولاق ، وجعل ينسخ المخطوطات ويجمع الكتب ، فنشأ ابنه أحمد أمين بين الكتب والقرايس والمحار . وكان من الأمور المألوفة في حدانة أحمد أمين أن يدرس هو وأمثاله في كتاب أو في مدرسة ابتدائية ، وأن يلتحقوا بعدئذ بالأزهر حيث يقضون السنين الطوال في دراسة العلوم الدينية والعربية . وسار الفقيه هذه السيرة . ولكنه ما لبث طويلاً في الأزهر ، فلقد نجح في دخول مدرسة القضاء الشرعي ، فتخرج منها ثم عين قاضياً شرعياً .

ومن الغريب أنه تعلم اللغة الإنكليزية على معلمة من بنات الإنكليز كانت تسكن مصر ، وراح يطالع العلوم الحديثة ومؤلفات المستشرقين بهذه اللغة ، ولذلك عد من أدباء مصر القلائل المشهورين الذين تتقنوا بالثقافتين العربية والغربية ، فكان لهم أثر محمود في نهضة الأدب العربي في العصر الحاضر .

ولم يمكث الفقيه مدة طويلة في القضاء ، فقد كلف منذ سنة ١٩٢٦ بتدريس الأدب العربي في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فراح يلقى على طلابها دروساً في النقد الأدبي ، كما راح يهيمُ عدداً من مصنفاته المعروفة . وقد واثته بيثة الجامعة ، ووجد فيها مجالاً واسعاً للمداسة والتأليف ، فكان في الكلية أستاذاً ، وعميداً مدة من الزمن ، ثم منحه مجلس الجامعة لقب دكتور فخري فصار يسمى الدكتور أحمد أمين . لقد كان رحمه الله من أساطين النهضة الأدبية في هذا القرن ، سواء أفي لدروس التي ألقاها في كلية الآداب ، أم في تصنيف الكتب الممتعة ، أم في رياسته

للجنة التأليف والترجمة والنشر ، أم في اشتراكه في أعمال مجمع اللغة العربية ، أم في بحوثه في مؤتمرات المستشرقين ، أم في أحاديثه بمحطة الإذاعة المصرية والشرق الأدنى ، أم في رياسته للإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية .

عرفته منذ نحو ربع قرن يوم زارنا في المجمع العلمي العربي بدمشق مع ليف من طلاب كلية الآداب . ثم توثقت عرى الصداقة بيننا في رحلاتي إلى القاهرة . وأهديت إليه معجمي ، وأهدى إليّ ثلاثة من كتبه ، وكلما كنا نجتمع كنت أجذفيه انخلاق الرضى ، والعقل الراجح ، والثقافة الواسعة ، والفكر النير ، والحرص على إحياء تراث الأجداد ، وعلى تربية النشء العربي ، تربية قوامها التحلى بالأخلاق الإسلامية الفاضلة ، ومحبة الوطن ، وخدمة الملة خدمة صادقة بعيدة عن الأثرة .

أذكر أنني سألته مرة : لماذا لا يعنى في مؤلفاته ومقالاته بالمبنى بقدر عنايته بالمعنى ؟ فتبسم وأجاب قائلاً : هذا هو أسلوبى في الكتابة ، ولكل كاتب أسلوبه ، فأنا يهمنى أن يفهم القارى من أبناء هذا العصر مواضيع كتبي ، ولا يهمنى أن يتعلم البيان منها .

وهكذا كان أسلوبه في الكتابة سهلاً مسطاً ، حتى أن القارى المتوسط الثقافة ، لا يلاقى أدنى مشقة في فهم مختلف الموضوعات الأدبية والاجتماعية والخلقية التى صنف الفقيه أو حاضر فيها .

لم يخدم الفقيه بمجده المبرور أبناء مصر الشقيقة وحدها ، بل خدم متأدى البلاد العربية كافة . وما من متأدب زارنى بدمشق بعد وفاته إلا وجدته حزيناً على فقده .

رحم الله الأستاذ أحمد أمين فقد أدى فى حياته ما عليه من واجب للوطن العربى ، وأدى بكتبه الخالدة واجبه بعد مماته . . .

لمحات من محمد أمين

بقلم السيدة

ورداد سطا كيني

حزنت من أجله قبل موته فقد أحسست اقتراب أجله ورحيله ، يوم رأيت
للمرة الأخيرة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، حيث احتفلت هيئته بانتخاب صديقه
توفيق الحكيم في عداد الجمعيين ، وكان أحمد أمين يجب فن الحكيم فلم يتخلف
عن حضور الحفل البهيج ، على الرغم مما كان يعاني من وهن في جسمه ، غالب ضناه
بالتجلد والتحمل .

لقد أقبل ببطء الحركات فاطر المحامات وقور الطلعة ، فدعوته للجلوس بجني ،
وما كاد يراني ويعرفني حتى حمد لي ما كتبت عن آخر^(١) مؤلف له ، وهو
« قاموس التقاليد والعادات والتعابير المصرية » .

كان مجلسه يومذاك على تخوم الدنيا مشرفاً على عالم آخر ، طالما دومت روحه
في آفاقه باحثة عن الخلود والخالدين ، باعثة آثارهم وأخبارهم في كتبه ومقالاته ،
وقد عجبت لذلك البرزخ الذي جلس فيه أحمد أمين يشهد انتظام صديقه الحكيم
في سلك الأعضاء الجمعيين ، وكأنه جاء مودعاً وفي المجمع صحبه وأنداده ، فلم يشأ
أن يغادره ويفوته آخر مجلس فيه قبل أن يلقي نظراته الأخيرة على هؤلاء الذين
سلخ العمر معهم بين مطارحات الفكر والنقد ، ومجالس الثقافة والأدب .

كنت أرنو إليه مشفقة متأسفة ، وقد وهى جسمه وكل بصره وارتعشت

(١) نشر بعد وفاته كتابه « بين الشرق والغرب »

يداه من مجهود طويل لا من هرم ، فكان مثل الشمس في الأصيل ترمى بشعاعها الوانى وهى توشك على الغروب ، فما أقسى ما تصنع نواميس الحياة ! إنها حتم على الجميع ، ولقد قيل فى الأثر « كل امرئ ما يحسن » فليت حوادث الدهر سكبت بقسطاس ، فتجاوزت عن المحسنين الأفاضال الذين منهم أحمد أمين ، وليس هذا منى معارضة أو تجانفاً لكنه تظلم وابتئاس ، من أجل أناس تفردوا بمزايا ومواهب لم تكن إلا فى الأقلين عدداً ، ممن يظهرون على أطراف السنين ، فلورأينا هذا الفقيد الحميد من نشأته إلى مماته مثلما نرى شريطاً سينمائياً ، وهل كانت الحياة فى حقيقتها إلا من هذا القليل ؟ لقلنا أين نحن الآن من أحمد أمين ؟

إنه أصبح بجمانه فى عالم العدم ، إن صح أن يكون للعدم عالم ، ولم يبق إلا ذكره وأثره فيمن خلف وفيما أبقى من مؤلفات قيمة ومشاركة فى البناء والتهديب ، ورسالة علمية يؤديها من بعده كل من اهتدى بهديه ، واقتدى بكفاحه وسيرته من تلاميذه ومريديه .

تساءلت هذا التساؤل لأنقصى مراحل البناء والإعداد فى هذا العالم الأديب ، فهو لم يبن بيسر وطفرة ، وإنما بنى بزيت الليالى التى طالت وترجرت مصابيحها على دفتاره وأوراقه يحبرها ويحررها بدقة ومعرفة وتمكين ، ولقد أنشأ نفسه الكبيرة بعلم وحذق ومراس فى طويل الأيام والأعوام ، حتى أعطى الزمان فيه ذلك الإنسان الموهوب الدؤوب ، الذى ملأ دنيا مصر والإسلام بذكره وخبره ، وأقبل عليه طلابه وعارفوه مثل إقبال العطاش على النبع الروى الفياض .

ولئن أوتى رجاحة وخصباً ورأياً فإن هذه الميزات شغلته طوال عمره وجعلته لا يستريح ، فقد عاش ياحثاً محصاً يؤلف الكتب ويلقى المحاضرات ويملى الخطوط حتى آخر لحظة من حياته ، وكان يحمد لربه حين دهمه الداء منذ بضع سنوات أن أبقى عليه سلامة الفكر والمنطق ، ولما تجنى عليه كبير العلماء فى دمشق نشر

في « الثقافة » مقالاً عنيفاً دافع فيه عن نفسه معتصماً برجاحته وكرامته ، مشفقاً على ظلمه من جموح الرأي وهياج الأعصاب .

أما عقله وعلمه فكانا يظهران من بين سطوره وآثاره ، ظهور النجوم في صفحة السماء متلاثلة ساطعة ، ولو أن نصيبه جرى في الفلسفة وحدها فتمرس بها واختص بدراستها ، لكان أحد أساطينها في العصر الحديث ، فقد أخذ المنطق عدّة في تأليفه وتصنيفه ، ولهذا ظهر في أحكامه الأذوية التحديد والاستقصاء في تثبت وتجرد ، فلم ييل مع الهوى ولا انحرف عن الغاية العلمية بل أخذ الحقيقة هدفاً ومراداً ، وحين صور الحياة العقلية في فجر الإسلام ، وفي ضحاها وظهره ، وفي يوم الإسلام وغيره ، أعطى أحمد أمين مثالا للعالم الثبت الذي لا يعبا برضى طائفة دون طائفة ولا بقوم دون قوم ، ولو بقي وحده في صف واحد والعالم جميعاً في صف آخر ، وقد جر عليه هذا المذهب تعباً وغضباً ، فلم يأبه للناقين والمتعنتين لكنه بات حزينا لأنهم لم يفهموا عنه مقاصد قوله وتأويله ، وما قدروا الحرية والسلامة في كلامه ومرامه ، فهو لم يبتغ زلفي ولا ذكرى ، ولا داور أو غالط في موضوعات شائكة بل تجرد لها وخاض فيها ، غير متهيّب ولا متحرج ، وخرج منها بما ارتأى واستنبط من حكم وتقدير مطمئناً مقررأ ، ولا بد من يوم قريب تواعدنا فيه قبيل وفاته بمقال أزرّح بالحجة والبرهان ما ثار من غبار حول آرائه الجريئة التي لم يتقبلها كثير ممن خالفوه وناقدهوه ، وما كان يرجمه الله متأيماً على الحق ، فإذا لاح له الصواب عاد إليه راضياً معتبطاً .

على أن المتبع لحياة الفقيه وسيرته ، كان يشهد اتجاه تفكيره وشعوره ، فلم يكن على تعمقه في الأمور وشدته في الحقيقة غليظ القلب متعنناً أو قاسياً ، وإن غلب عقله دائماً ، بل كان مترفقاً بالضعيف عف اللسان والقلم يستجيب للمستجير والهضم وملتمس العون العلمي والتوجيه فيساعته ويقينه لكنه يعود إلى حرية الفكر والرأي التي آثرها في حياته ووجهته ، فيرضى نفسه ومنهاجه ، بنصيحة يسديها

أو كلمة يسدد بها خطة أنجزها لباحث أو دارس ، ولم يجعلها حجة له أو مجازاً ، ولن نسى ما انفق له حين استجاره طالب سوري للدكتوراه حذب عليه وأغاثه ، ولما كان الغد نشر الدكتور أحمد أمين فكرة الأسبوع بمجلة « الثقافة » وفيها رأيه الصريح ببحث الطالب لثلاثي بحسب العون رضى فيخامره الغرور .

وكان هذا دأبه في حرية الحكم على الدراسات الجامعية والفكرية ، نصيحاً في نقده صريحاً في تعبيره ، وهو على جده ووقاره كان لا يتحرج من نكتة يزجها في الحوار والامتحان ، يخفف من جفاف المناقشة والمطارحة .

وقد كتب تحت صورته في شبابه وهو بعامته أماتيه في الوجود بأن يكون نافعاً لغيره ، وكأنه رسم إذ ذاك ناموس عمره ومنهاج علمه وعمله ، فما انحرف ولا تعسف ، وما زاع ولا راغ ، وكان أول آثاره في « الأخلاق » فدعا إلى التمس بها في المعاملة والمعيشة في البيت والمجتمع ، وقد تجافى عن التشدق والتأنق ، ففضل البساطة في الأداء والمظهر عن طبع وحرية ، ولم يعرف عنه الملق لحاكم أو الزلفى لطاغية أو خطير ، كما تورط كثير من الأدباء والمؤلفين الذين تنصلوا مما صنعوا في العهد السابق تكلفاً أو طوعاً ، وقد سألته مرة وكان منشراحاً للجواب : لم أجد فيما نشرت مديحاً للملك الخلوع لا بسانحة عيد أو ميلاد ، أو حفل عام .

فتبسم يرحمه الله ابتسامة طفل وديع وقال :

... مرة واحدة ، فعلتها على الرغم منى ، فكانت كلمة باردة جافة ، فيها تكلف يخالف طبعي ، فلما قرئت ظهرت جسماً من غير روح ، وانكشفت فيها حقيقتي بالتأني على غير ما أومن به وأعتقد ، فأهملت الكلمة . . .

ووفى أحمد أمين بهده وبرّ بذره فوهب علمه وجهده للجامعة والحياة الفكرية فكان نافعاً موجّهاً أفاد الألوفاً من الطلاب والمتأدبين بمصر والبلاد العربية ، وتمد كتبه اليوم من أجل المراجع وأحسنها نسقاً وتوثيقاً كما أن ثقافته الواسعة

الجامعة بين القديم والحديث ، أتاحت لكل قارى أن ينشد فيها متعة ونفعاً .
إن نواحي القول في هذا الفقيه العظيم عديدة لا تحصى ، فيها سيرته
وحياته ، وفيها علم وأدبه ومنطقه ورأيه ، وتعهد له لكثير من شؤون التأليف والترجمة
والثقافة ، وبين هذه النواحي تبرز المرأة التي كان أحمد أمين نصيراً لها مؤيداً
لتعليمها ونهضتها ، فما وضع في طريقها الشوك ، ولا جردها من المواهب والكفايات
كما فعل كثير من أديبائنا للعاصرين الذين ذموا طبعها وتكويرها ، واتهموها بالخلو
من مزايا العقل والإبداع ، فكانوا ناقمين هادمين وما كانت النعمة والتهديم من
سجايها أحمد أمين ، فقد علم المرأة وبنائها ، وكرمها في أمه وزوجته ، وفي بناته وتلميذاته ،
وقدرها قدرها في كل ذات رأى ونبوغ ، وكان يرجو أن يعم التعليم ويمتد إلى
نساء القرى لتحظى الريفة بنور العلم والحضارة .

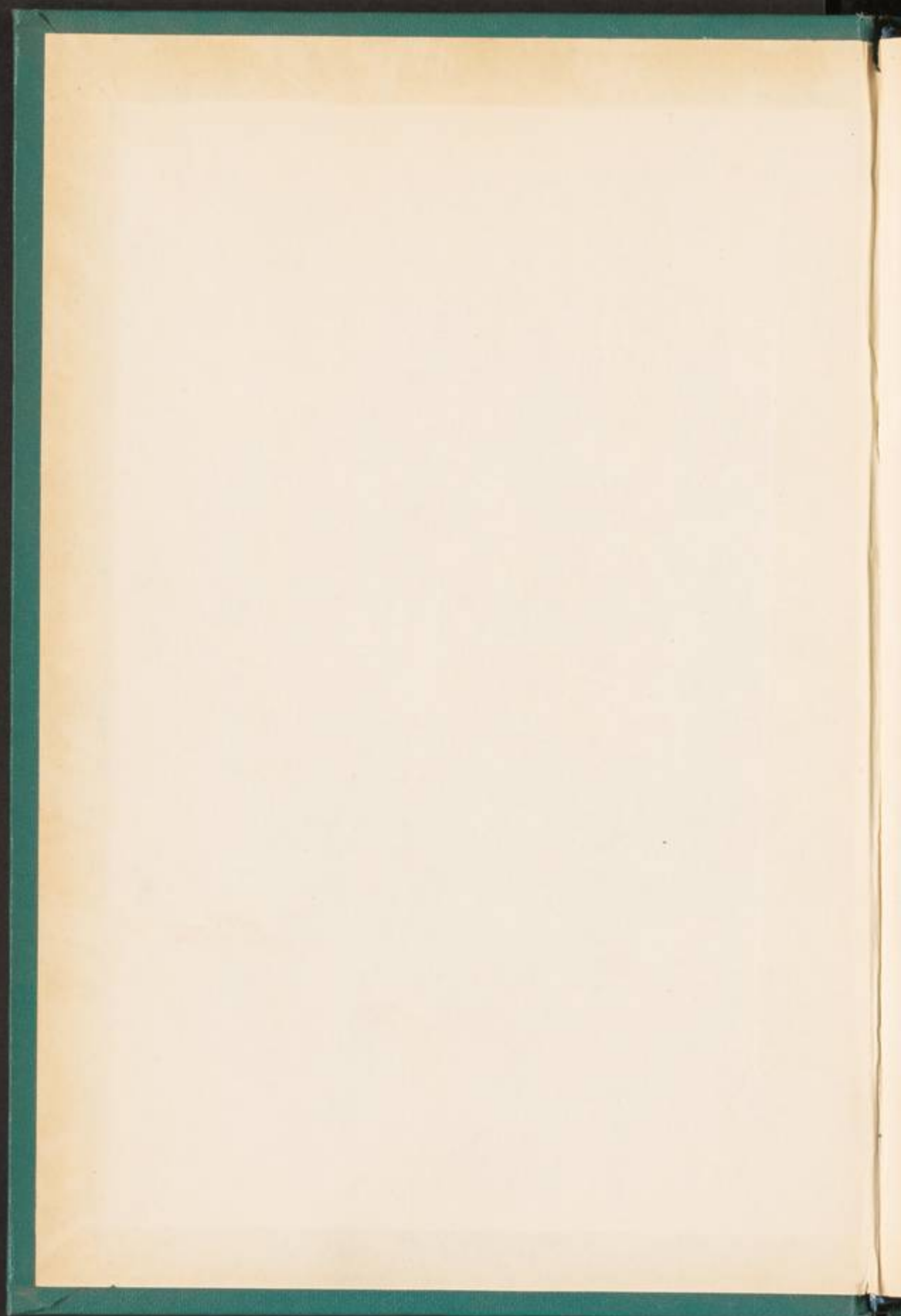
لقد دخل الدكتور أحمد أمين بغيابه عن دنيانا هيكل الخالدين ، وأصبح في
ذمة التاريخ ، فإذا تفقدناه وجدناه بأثاره ومجوده الباقي ، ولو أحصينا حسناته
في كفاحه وسعيه وما لم يعرف الجمهور من فضله لرجحت على ما قدم جمع من
العلماء والأدباء .

وبعد ، فلئن لم أكن من تلميذاته في الجامعة فقد أتيج لي وقد أن أكون
أكثر من هؤلاء معرفة به وتتبعاً لمحاضراته وأحاديثه ، وما فاتني صفحة من كتبه
ومؤلفاته ، قرأتها معجبة مستقصية ، وكنت سعيدة برضى الفقيه عن أدبي وإهدائه
إلي بعض الكتب التي وضعها أو شارك في تحقيقها ، وطالما أنس بنا - قريني
وأنا - فتلقانا ببشاشته وعلى سجيته ، نستعرض ما جد في الأدب ثم يحدثنا عن
آخر مقال كتبه أو كتاب بين يديه يتوخى في وضعه الجدة والانتان .

واليوم أترحم عليه في هذه الصفحات الخاطفة وأحس روحه رفاة حولي ، باسمته
كبسمته الهادئة في الدنيا ، فيارحمه الله بسطى على الفقيه رياحين الخلود وتحيات
الطيبين الأبرار .



رفع آلاء الدين شوقى أسكنه الله الفردوس



NYU - BOBST



31142 02820 9610

CT2718.A5 A6

Ahmad Amin